تَعْلِيقَاتٌ

حَوْلَ تَفْسِيرِ الإمام النَّسَفِيِّ

لِسُورَةِ الْإِسْرَاءِ

لِلْإمامِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الله سِرَاجِ الدِّينِ الحُسَيْنِيِّ

جَمْعُ وتَقْدِيمُ

وَلَدِهِ المهنْدِسِ الشَّيْخِ

مُحَمَّد مُحْيِي الدِّينِ سِرَاجِ الدِّينِ

رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى ورَضِيَ عَنْهُمْ

تَعْلِيقَاتٌ حَوْلَ تَفْسِيرِ الإمام النَّسَفِيِّ لِسُورَةِ الْإِسْرَاءِ

لِلْإمامِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الله سِرَاجِ الدِّينِ الحُسَيْنِيِّ

جَمْعُ وتَقْدِيمُ

وَلَدِهِ المهندِسِ الشَّيْخِ

مُحَمَّد مُحْيِي الدِّينِ سِرَاجِ الدِّينِ

رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى ورَضِيَ عَنْهُمْ

تَنْسِيقُ

تِلْمِيذِهِمَا

د. بَكْرِي بريمُو السَّمَّان

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة

إلى العَلّامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسِّر المُحَدِّث الشيخ

عبدِ الله سِراج الدِّين الحُسيني

وإلى ولده الكريم

فريد عصره ووحيد دهره

فضيلة الشيخ المهندس

محمد مُحْيي الدِّين سِراج الدِّين

رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.

الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام

www.srajalden.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾آمين.

الحمد لله رب العالمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾.

فقوله جل وعلا: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: التوراة، وهي أفضل الكتب الإلهية بعد القرآن الكريم وأجمعُها للأحكام الشرعية.

﴿هُدًى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: هدى لهم فقط –وليس للعالمين– أما القرآن الكريم فهو هدىً للعالمين بأجمعهم.

وقوله تعالى: ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: يعني: (عبد الله) لأن كلمة (إسرا) تعني (العبد)، و(إيل) تعني (الله جل جلاله) -في اللغة العبرية- فـ(إسرائيل) المذكور في الآية الكريمة هو سيدنا يعقوب عليه السلام[1] لأن اليهود قبْل سيدنا موسى عليه السلام كانوا يُسَمَّون بـ(بني إسرائيل) ...

فمن هم بنو إسرائيل؟

لقد كان لسيدنا يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولداً، تفرَّعَ وتشعّب عنهم اثنتا عشرة فرقة، وكل فرع منهم يسمى: (سبطاً)، وهم أسباط أي أحفاد، قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًا﴾... الآية، وذلك لأن كل فرع من هذه الفروع صار أمّة أو شعباً، أما عند العرب فيقال: (قبائل).

فالأسباط هم أحفاد يعقوب عليه السلام، ونحن مأمورون بالإيمان بالأنبياء المرسلين إلى الأسباط.

فالتوراة ﴿هُدَى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الذين هم أحفاد سيدنا يعقوب بن سيدنا إسحاق بن سيدنا إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، أما العرب فينحدرون من سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكانوا يعملون بشريعة إسماعيل عليه السلام حتى مرت الأزمان واندرست، ولم تكن التوراة هدىً لهم،

---

[1] قال الإمام الرازي في تفسيره: اتفق المفسرون على أن ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، ويقولون: إن معنى ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: (عبد الله) لأن (إسرا) في لغتهم هو العبد، و (إيل) هو الله تعالى. اهـ 2/ 54

لذلك قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ أي لم يُنذَروا منذ عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يُبعث فيهم رسول أو نبي إلى أوان بعثتك يا محمد –صلى الله عليه وسلم–.

﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ أي: وكيلاً مطلقاً حقيقياً وهو الرب جلّ وعلا، وهذا لا يعني عدم اتخاذك وكيلاً في بعض الأمور الخاصة كالبيع والشراء والنكاح، أما الوكيل المطْلق الذي تَكِلُ أمورك كلها إليه فهو الله تعالى.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾: أي أنتم يا بني إسرائيل كنتم في أصلاب مَن حملنا مع نوح عليه السلام –وهذا امتنان مِن الله عليهم– أو المراد: أمّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكذلك هم ذرية من حُمِل مع نوح عليه السلام.. بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ قَلْبُ الشكر: أنْ تعترف أنَّ ما بك من نعمة فمن الله جل وعلا، وللشكر جناحان:

أولهما: العمل، قال جل وعلا: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ يعني شكر الجوارح، وثانيهما: اللسان، وهو الحمد باللسان، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: [الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ تعالى عبدٌ لم يحمده] [1] لأن الحمد لا يكون إلا باللسان، وهو شكر اللسان، لذلك كان الحمد بمنزلة الرأس الظاهر، أما شكر القلب فأمر اعتقادي باطن، وإظهار الشكر باللسان هو الحمد، لذلك كان كالرأس الظاهر.

[1] رواه البيهقي وغيره وقد رمز الحافظ السيوطي إلى حسنه

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: القضاء: الحُكم، يقال: "قضى له" أي: حكَم له، و: "قضى على" أي: حكَم على، أما "قضى إلى" فتتضمن معنى الإيحاء الذي هو الإعلام.

فقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حكمنا عليهم وأوحينا إلى نبيهم أن يخبرهم ويُعْلمهم.

وحُكْم الله عليهم كان بأي سبب؟

هنا يجب أن تتفهم معنى القضاء والإرادة والجَعْل بالنسبة لله تعالى حسب السياق في الآيات الكريمة، فهناك القضاء القدَري وهو نافذ لا يتبدَّل كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: [وَإِنَّ رَبِّي تَعَالَى قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ][1].. الحديث.

وهناك القضاء التشريعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فلو كان معنى ﴿قَضَىٰ﴾ هنا: (قدَّر) لَمَا كان هناك مَن يعبد غير الله تعالى –لأن القضاء نافذ لا محالة– لذا كان معنى القضاء هنا: القضاء الشرعي بمعنى: (حَكَم شرعاً) أي: شَرَع، وما شرعه الله تعالى قد يمتثله البعض ويُعرض عنه البعض.

[1] طرف حديث قال عنه في (التيسير): أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي

فقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ يحتمل[1] المعنيين السابقين للقضاء، لكنه إذا كان بمعنى: (قدَّر) يكون بسببٍ منهم ارتكبوه، لأن خيارهم أقرُّوا شرارهم فقضى سبحانه عليهم الفساد ثم العذاب الذي يستلزمه فسادهم.

والإرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ ، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ الإرادة هنا إرادة نافذة قَدَرية.

أما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فالإرادة هنا إرادة تشريعية مُتَضَمِّنَة معنى الرضى والمحبة، أي: (يحب الله أن يتوب عليكم فاستجيبوا لذلك).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يرضاه لهم بقضائه التكويني القدَري النافذ.

---

[1] قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ : أي: قضينا عليهم وعهدنا إليهم أي أعلمناهم بذلك، والقضاء هنا: قضاء تكويني نافذ، نظيره قوله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: قضينا إلى لوط –عليه السلام– أي عهدنا إليه وأعلمناه بقضائنا النافذ على إهلاك قومه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾..الآيات.

ملاحظة:

"أَنْ" التفسيرية هي المسبوقة بجملة فيها معنى القول– دون حروفه–[1] ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ﴾ فقوله جل وعلا: ﴿أَنِ ٱضۡرِب﴾: أي قلنا له: (اضرب) .

و(أَنْ) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢﴾ هي تفسيرية لجملة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾: كلمة ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ هي صفة قامت مقام المصدر، وهي مفعول مطلق، أي: " لتفسدن في الأرض إفسادين مرتين".

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي وأوحينا إلى أنبيائهم، نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ أي: أنزلنا على نبيكم ﷺ ﴿إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾.

---

[1] أي: دون أن يُذكر فيها صراحة فعل القول

قلنا: إن الله تعالى تَوَعَّدَ بني إسرائيل بالعقاب والعذاب بفسادهم في الأرض مرتين، ففي الآيات يبين سبحانه أُولى المرتين وأنهم بعد ذلك ستُرَدّ إليهم القوة والغَلَبة.

ويُطْلَق (الوعد) للبشارة؛ و(الوعيد) للنِّذارة، وقد يُطْلَقُ (الوعد) على الخير أو الشر حسب السياق، قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ وهو وعد بالعقاب ، فأطلق الوعد وأراد الوعيد.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ أي: أكثر مما كنتم عليه قبل العقاب، و(النَّفَرُ) هم الذين يَنْفرون مع قائدهم أو زعيمهم.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ اللام في قوله تعالى: ﴿لِأَنفُسِكُمْ ۖ﴾ هي لام النفع أو لام المُلك، وكذلك اللام في قوله تعالى: ﴿فَلَهَا﴾ لأن إحسان المرء أو إساءته هي له ولنفسه دون غيره، كما قال علي رضي الله عنه: (ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه)[1] أي: إن إحسانك لغيرك إنما هو إحسان لنفسك، وإساءتك لغيرك هي إساءتك لنفسك.

[1] كما في (تفسير النسفي) عند كلامه حول هذه الآية الكريمة

ملاحظة:

في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾

﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾ على وزن: (افتعلت) وهي صيغة تدل على الفعل مع التكلف.

﴿كَسَبَتْ﴾ على وزن: (فعلت) لا تكلف ولا مشقة فيها، وذلك لأن أفعال البر والخير أمور فطرية في الإنسان لا يحتاج إلى تكلف فيها، أما أفعال الشر فيحتاج إلى تكلف وحمل نفسه على فعلها.

*** إحسانك لنفسك يسري خيره وبركته إلى غيرك:**

بدليل قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِهِ أُلْبِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَاجًا مِنْ نُورٍ ضَوْءُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لا تَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ] [1]

وغير ذلك من الأدلة، فالخير هو لك لكن يسري إلى غيرك بسببك وإكراماً لك، أما في الشر فضررك لا يسري إلى غيرك.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ أي: (وليُهلِكوا الذي استولوا عليه فتكون ﴿مَا﴾: اسماً موصولاً بمعنى (الذي).

أو يكون المعنى: (ليُهلكوا وليفسدوا مدة علوِّهم عليكم) فتكون ﴿مَا﴾: حرفاً مصدرياً يعطي معنى الظرفية.

---

[1] رواه الحاكم في (المستدرك) وقال: (صحيح على شرط مسلم؛ ولم يخرّجه)

ومِن ذلك قول القائل:

يُسِرُّ المَرْءَ ما ذَهَبَ الليالِي وكانَ ذَهابُهُنَّ لَهُ ذَهابًا

أي: يسر المرءَ ذهابُ الليالي.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ أي: لا بُدَّ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (عسى) و(لعلَّ) مِن الله واجبة -أي إذا قالها الله ودخلت على فعله سبحانه دون فعل غيره من المخلوقات-.

فهنا قالها الله تعالى ثم دخلت على فعله تعالى وهي رحمته لعباده.

لكن إذا دخلت على فعلِ مخلوق فتسمى (تعليلية) بمعنى (لأجْلِ) كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن يتفكروا ، وقوله سبحانه حاكياً عن فرعون: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ أي: (لأجل أن يتذكر أو يخشى)، لكنّ فرعون أبى واستكبر.

ثم سئل ابن عباس رضي الله عنهما: لِمَ وَجَبَتْ (عسى) و(لعلَّ) إذا دخلتا على فعل الله تعالى؟

فقال: (لأن فيهما إطماعاً من الله تعالى، فهو سبحانه يُطْمِعُ عباده، والكريم إذا أطمع لم يمنع، بل أَشْبَعَ).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: وإن عدتم للفساد عدنا للعقاب.

وهل وقع هذا منهم مرة ثالثة؟

للمفسرين هنا أقوال؛ منهم من قال: وقع هذا عندما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم وهاجر إلى المدينة المنوّرة، وكان فيها كثير من اليهود فنقضوا العهود مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعاقبهم الله بتسليط المسلمين عليهم -كإجلاء بني النضير وغيرهم-.

ومنهم من قال: وقع ذلك ولم ينته بعد بل فتح سبحانه عليهم باباً من العقاب إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ .

وقال بعضهم: هي الوقعة الأخيرة بين المسلمين واليهود -والتي هي من علامات الساعة آخر الزمان- ويشير إليها قوله تعالى بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ وهذه الآيات الكريمة فيها رد على المعتزلة الذين يُثبتون منزلة بين المنزلتين،-والقرآن الكريم لم يثبت ذلك بل صرَّح بأن الإنسان مؤمن أو كافر- والمعتزلة يقولون: "إن المؤمن هو الذي آمن واعتقد وعمل بالأركان، والكافر مَن أنكر العقيدة، أما من اعتقد ولم يعمل فهو في منزلة بين الكفر والإيمان، فلا هو مؤمن ولا هو كافر، وإذا مات على هذا أُلحِقَ بالكفار".

أما أهل السنة فيقولون: (إن من آمن ولم يعمل فهو فاسق أي مؤمن ناقص الإيمان، لكنه في حَيِّزِ المؤمنين) وهذا ما دلت عليه الآيات الكريمة فلم تُثبت منزلة بين الكفر والإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾:

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قد يراد به الإنسان العام مؤمن وكافر، فبعض المؤمنين –حين يغضب– يدعو بالدمار والهلاك على نفسه أو ماله أو عياله، وقد ذَمَّ الله تعالى ذلك، فلا ينبغي للمؤمن أن يستعجل بالدعاء بالشر، والله تعالى لا يستجيب دعاء الشر بل يستجيب دعاء الخير، لكن إذا صادف الدعاء وقت إجابة –كساعة الجمعة أو ثلث الليل الأخير أو دُبُر الصلوات– فقد يستجاب ذلك الدعاء بالشر، فليحذر المؤمن من الدعاء بالشر .

أو أن المؤمن قد يطلب النفع العاجل كمالِ الدنيا وزخارفها ولا يعلم أن هذا النفع العاجل ظاهره خير ولكن وراءه شر، لذلك ينبغي عليه أن لا يطلب المال بل يطلب ما هو الخير في حقه، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ ولم يقل سبحانه: (ربنا آتنا الدنيا) بل علَّمنا جل وعلا أن نطلب حسنة الدنيا أي: ما يَحْسُن به حالنا.

﴿بِٱلشَّرِّ﴾ أي مثل دعائه بالشر، فحُذِفت أداة التشبيه لأنه تشبيه مبالغ فيه.

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾: يستعجل في طلب الأمور دون معرفة وتبصرة في عواقبها، والكافر قد يدعو بالخير أيضاً بدليل الآية: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾.

أي: أنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم لكم رجاء من الله تعالى هم لا يعرفونه، وهم لهم رجاء أيضاً لكن في أمور الدنيا من متاع ومال وجاه.. الخ، وقد يعطيهم الله تعالى ذلك من باب الاستدراج.

أو أريد بـ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافر فقط ـ وهذا وجه بعيد ـ وذلك عندما كانت الرسل تدعوهم إلى الله وعبادته وتنذرهم العذاب فكان الكفار يستعجلون بالعذاب استهزاءً، قال جل جلاله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ ولكنه سبحانه لا يعجّل لهم العذاب لأنه تبارك وتعالى حليم؛ فلعلهم يؤمنون ويرجعون..

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ .

الجعل: قد يطلق بمعنى (الخلق)، فقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ أي: (خَلقنا)، وقد يطلق بمعنى (التصيير) كقولك: (جعلت الطين إبريقاً) أي: صَيَّرْتُه.

فإذا قلنا: المراد من الجعل في الآية (الخلق) يتعدى فِعل (خَلقنا) إلى مفعول واحد فتعرب كلمة: ﴿ءَايَتَيۡنِۖ﴾ حالاً.

وإذا قلنا: المراد منها: (صيّرنا) يتعدى الفعل إلى مفعولين فتعرب كلمة: ﴿ءَايَتَيۡنِۖ﴾ مفعولاً به ثانياً.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ أي: أوجدنا ثم صيَّرْنا، فقد خلقهما سبحانه من قَبْلُ معاً، ثم فرَّق بينهما.. قال جل وعزّ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ فخلقهما سبحانه مطويّين مع بعضهما ثم سَلَخَ هذا من هذا.

وقال جل وعلا: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ وهذا من باب تعاقب الزمان.. قال سبحانه: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ كما جاء في قوله عز من قائل: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾... الآية، فالأزمنة تتوالد من بعضها، وأيام الدنيا متوالدة، أما اليوم الآخر فهو يوم عقيم؛ لا يوم بعده ولا نهاية له.

وكل شيء في الدنيا متوالِد.. حتى الحَجَر -كما هو مُقَرّر عند أهل الله تعالى-.

قوله تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ (آية الليل) و(آية النهار): يحتمل أن تكون الإضافة هنا بيانية؛ فالمضاف إليه -وهو الليل- بيان للمضاف كأن تقول : (عنده أربعُ نسوةٍ) فالأصل قولك: (عنده أربعُ) لكنك ما بينتَ ما هي الأربع؟ لذلك قلت: (نسوةٍ) فالأربع في النسوة وليس في غيرها، فنفْس المضاف هو عين المضاف إليه، والإضافة بيانية.

أما قولك: (غلامُ زيدٍ) فالغلام وحده وزيد وحده؛ أي: (غلام لزيد) وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ الذي هو آية فجعلناه مظلماً ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: وجعلنا النهار -الذي هو آية أيضاً- ﴿مُبۡصِرَةً﴾: يقال: (أبْصَر- يُبْصر- فهو مُبْصِر) والفعل لازم، أي : يرى، و(هي مبصرة) أي: ترى، ليست عمياء .

فالنهار مُبْصِر أي يرى، أو يُرى فيه أي مبَصِّر لغيره.

ويقال: (أبْصَرْتُه وبَصَّرْتُه): أي: جعلته بصيراً يرى.

﴿مُبۡصِرَةً﴾: أي مبَصِّرة لمن يُبْصِر ويرى

وإن قلنا: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ مِن: (أَبْصَرَ) فهذا إسناد مجازي [1] لأنها السبب في تبصير الغير، وهذا على احتمال أن تكون الإضافة بيانية.

وإن قلنا: إن الإضافة على معنى (اللام) أو معنى (مِنْ) -مثل قولك: (خاتمُ حديدٍ) أي: خاتمٌ مِنْ حديد، و(غُلامُ زيد) أي غلام لزيد -أي الإضافة التقليدية- فيكون معنى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: وجعلنا نيِّري الليل والنهار أي: مُنيريهما -وهما الشمس والقمر- فَهُمَا النيِّران التابعان لليل والنهار -على معنى اللام-

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾أي: القمر؛ فلا نور له وإنما يستمد نوره من الشمس

﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ وهي الشمس

﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في معايشكم ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ أي: لتعلموا عدد الأشهر القمرية والشمسية، وحساب الآجال من ديون مؤجَّلة وأعمالٍ وأوقات الصلاة وشهر الصيام ومواسم الحج ... وغيرها

ولو كان الأمر غير ذلك لما عُرِف الليل من النهار، ولا استراح تجار الدنيا الحُرّاص عليها بل اشتغلوا حتى هلاكهم.

---

[1] الإسناد المجازي العقلي: هو إسناد الشيء إلى غير من هو له، كقولك: (نهر جارٍ) فالنَّهر لا يجري لأن النهر ما انْتَهر أي انشق في الأرض وإنما يجري الماء الذي فيه.

فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ أي: يُبْصَرُ فيها

والحقيقة العقلية هي: إسناد الشيء إلى من هو له

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ أي فصَّلْنا لكم وبيَّنا لكم كل ما تحتاجون لسعادة الدنيا والآخرة، -وليست الكلية عامة هنا إذ لم يُفَصِّل المسمارَ والطائرة والسيارة، إنما فصّل سبحانه أمور الدين وبيّن ونظّم أمهات مصالح الدنيا- أما مسألة الاختراع والإبداع في الصنعة فموكولة لكم ولحاجتكم إليها، وكل زمن يناسبه اختراعات معينة، فكل جيل يأتي بجديد ثم الذي بعده يطوِّرُه ويتمّمه.. وهكذا حسب الحاجة.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ الأصل في الطائر: الحيوان المعروف الذي يَفِرُّ من وَكْرِهِ ويطير بجناحيه، فشَبَّه عمل الإنسان الذي يصدر منه بالطائر، وكأن الإنسان وَكْرُهُ وأعماله تصدر منه، ولكن الإنسان مُلْزَم بها وهي معلقةٌ في عنقه.

وتعليق الشيء في العنق قد يكون للكرامة والزينة كالقلادة والأطواق، وقد يكون للإهانة كالغُلّ الحديدي في عنق المجرم .

فعمل المؤمن مُلْزَم في عنقه كالقلادة والزينة يوم القيامة، وعمل الكافر ملزم في عنقه كالغل في عنق المجرم -للإهانة-.

﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا ﴾ أي نجعل عمله الذي صدر منه كتاباً يوم القيامة بدليل قراءة: ﴿ويُخْرَج له﴾ [1] ـ أي يخرَج له عمله وطائره ـ

[1] كما في قراءة الحافظ أبي جعفر يزيد المخزوميّ المدنيّ المتوفى سنة 130 للهجرة رحمه الله تعالى ورضي عنه

﴿يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ أي: مفتوحاً، لأن كتاب أعمالك الآن مفتوح والملائكة تكتب ما يصدر منه إلى حين مماتك وعندها ينطوي كتابك إلى يوم البعث فيفتح يومئذٍ وتلقاه منشوراً.

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ١٤﴾ فكل إنسان سيقرأ كتابه -ولو كان أمّيّاً، فإن الله يخلق فيه علماً ضرورياً بحيث يقرأ كتابه- والشيء الموجود في الكتاب هو الذي يحكم عليه.

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾

﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾: ـ التاء للمطاوعة؛ يقال: (جمعتهم فاجتمعوا وهديتهم فاهتدوا)- أي: عمل وتحقق بالهدى الذي هدت إليه رسل الله الذين معهم هدى البيان والدَلالة -أما هدى التوفيق فمن الله تعالى- فمَن سلك طريق هديهم وعمل به فقد اهتدى، ومن أعرض فقد ضل، والنتيجة عائدة إلى نفسك.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ الوِزْرُ هو الحمل، وكل إنسان حامل أعماله والمراد هنا: ذنوبه؛ فلا أحد يحمل ذنوب غيره.

﴿وَازِرَةٞ﴾: نفس وازرة أي: حاملة، فمن جنى بقتل نفسٍ يقتَل هو، ولا يُقتل أبوه أو أحد من عياله كما فعل الجاهليون وقد قال دعاة الضلال للضعفاء كما أخبر عنهم سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾.

نعم لا تنافي بين الآيتين لأن دعاة الضلال يحملون أوزارهم وأوزار تضليلهم لغيرهم فعملية التضليل ترجع إليهم فهم ضالّون مضِلّون.

أما عملية الضلال التي وقع فيها الضال فترجع إلى نفسه، فالذي ضلّ يحمل ذنب ضلاله، أما من ضلَّله فهو ضال مضِلّ فيحمل ذنب ضلاله وتضليله لغيره وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي ذنوب إضلالهم للغير ممن اتبعوهم، فداعية الضلال عليه ذنبُه وذنوب أتباعه.

وداعية الخير له ثواب عمل الخير الذي عمله وله ثواب كل من عمل بطريقه واهتدى بهديه.

جاء في الكتاب الذي أرسله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قوله: [سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ].. أي إثمك وإثم أتباعك.

ولذلك يقال للرجل المضِلّ: (داعية الضلال) ، وكلمة: (داعية): مبالغة مِن كلمة (داعي) مثل كلمة: (علّامة) يقال لواحدهم : (سُدَّ ركناً من أركان جهنم) أي مكاناً كبيراً من جهنم، فضرسه كجبل أُحُد، وجلده مسيرة ثلاثة أيام[1]، وأتباعه يمشون على لسانه[2] .... اللهم اجعلنا دعاة خير

---

[1] جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ]

[2] روى الإمام أحمد في مسنده عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [إِنَّ الْكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَاءَهُ قَدْرَ فَرْسَخَيْنِ، يَتَوَطَّؤُهُ النَّاسُ].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥﴾.

الأشاعرة [1] أخذوا بظاهر الآية أن العذاب هو عذاب الآخرة، وأن الله لا يعذب أحداً في الآخرة إلا بعدما يبعث إليه رسولاً يقيم عليه الحُجّة، وإذا لم يبعث إليه رسولاً -كحال أهل الفترة والشواهق- فهو ناجٍ.

وذهب الماتريدية إلى أن عذاب الآخرة غير موقوف على بعثة رسول في الدنيا بل موقوف على العقل، فإذا عَرَف الإنسانُ اللهَ بعقله نجا، وإذا لم يعرفه بعقله عُذِّب، فعندهم العقل وحده حجةٌ في التوحيد -أي: في معرفة الله فقط وليس في معرفة الأوامر والنواهي-، وحملوا العذاب المذكور في الآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥﴾ على عذاب الاستئصال في الدنيا مثل عذاب قوم عاد وثمود وهكذا ... يعني: بل نؤخر عذابهم إلى الآخرة، وعلى هذا فالماتريدية يقولون: (إن أهل الفترة غير ناجين في الآخرة) لكن الحق مع الأشاعرة الذين قالوا: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥﴾ أي: وما كنا معذبين في الآخرة حتى نبعث رسولاً.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦﴾

الإرادة هنا: إرادة تنفيذ بمعنى تنفيذ الإرادة لأن الإرادة قديمة فالمعنى: (وإذا أردنا تنفيذ إرادتنا السابقة).

---

[1] الأشاعرة هم جمهور الشافعية، والماتريدية هم جمهور الحنفية، وقد يكون هناك شافعي ماتريدي أو حنفي أشعري ، ونحن أحناف لكن هناك أمور نختلف فيها مع الماتريدية لذلك نحن أشاعرة.

﴿قَرْيَةً﴾ جذر (ق ر ا) يدل على الجمع ومنه: (قرى الضيوف) أي: جَمَعَهم، فـ (القرية) هي: الجمع من السكان.

وفي القرآن الكريم المراد من القرية: (البلد العامر بالسكان).

وكل مجموعة من القرى لها أُمٌّ -كالعاصمة الآن- فكانت الرسل تُبعَث في أُمّ مجموعة القرى، ولما كانت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عامة لجميع البلاد والعباد بُعِثَ في أم القرى كلها وهي مكة المكرمة.. قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: مكة المكرمة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: جميع بلاد الأرض حولها.

أما معنى (الضَيْعة) فسميت بذلك لأن الإنسان يضيع فيها -إذ لا معالم فيها-، وكل صنعة تأخذ من صاحبها شغلاً كثيراً فهي ضيعة، كما جاء في الحديث قول الصحابي الجليل حَنْظَلَة الأسيدي رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا)[1]... الحديث

و(الضَّيْعَات) هِيَ: مَعَاشُ الرَّجُلِ مِنْ مَالٍ أَوْ حِرْفَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ.

﴿أَمَرْنَا﴾ : مِن (أمَرَ) ضدّ (نهى) أي: أمرناهم بالطاعة ـ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ يدل على أن الأمر كان بالطاعة ـ .

﴿مُتْرَفِيهَا﴾ : جمع (مُترَف) وأصل الكلمة (مترفينها) حذفت النون للإضافة، والترف هو: بطر النعمة، والرفاهية: رغد العيش وسعادته.

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة

يقال: (تَرِفَ الرجل مَتْرَف تَرْفَاً) بَطِر النعمة فهو تَرِف، ويقال: (أترفه الله) أي: أغدق عليه النعم، فقد فتح الله تعالى عليهم باب النعم فجحدوها ولم يشكروها.

ويرد هاهنا سؤال:

لم يكن جميع أهل القرية مترفين بل كان فيها الفقراء أيضاً فلِم أخذوا بالعذاب؟

والجواب: لقد أخذوا بالعذاب لأن منهم أتباعاً للأغنياء المترفين فاتّبعوهم على الضلال باستكانتهم لهم ولم يتّبعوا ما جاءت به الرسل فأُلحقوا بالعذاب مع الأغنياء، ولولا الضعفاء لما قويَ المتبوعون فهم بمثابة الجناحين لهم، ولذلك كان لكلٍ من التابع وللمتبوع ضعف من العذاب.. كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾.

وقيل: ﴿أَمَرۡنَا﴾ بمعنى: (كثّرْنا)، وهو قول بعيد .

أما قراءة: ﴿آمرنا﴾[1] فهي بمعنى: (كثّرْنا) لأنه يقال في اللغة: (آمرته) أو (أمَّرته) بمعنى (كثَّرته) أما قولك (أمَرْتُه) بمعنى كثَّرته فهو قول بعيد كما تقدم.

وقراءة: [أمَّرنا] ليست من القراءات العشرة.

---

[1] وهي قراءة الحافظ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ زَيْدٍ الحَضْرَمِيّ المتوفى سنة 205 للهجرة النبوية الشريفة رحمه الله تعالى ورضي عنه

وجاء في الحديث: [خَيْرُ مَالِ المرْءِ لَهُ مُهْرَةٌ[1] مَأْمُورَةٌ[2] أَوْ سِكَّةٌ[3] مَأْبُورَةٌ[4]][5]

﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: خالفوا، الفسق لغة هو: الخروج عن الشيء الذي هو أصله، يقال (فَسَقَت النواة): انشقت وخرج اللب، فاللب فاسق، ويقال للعقارب والصراصير: (فواسق) و(فويسقة) -تصغير فاسقة- لأنها تخرج عن وكرها وتجاوز حدها فيجوز قتلها.

وشرعاً يسمى مَن خرج عن أصله وشرعه -المخلوق له[6]- وجاوز حده الذي هو العبادة يسمى: (فاسقاً).

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا﴾ وقال جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧١﴾ أي: إن القضية حق، وليست بظلم، والحق لا يكون إلا بعد اختيار أعطاه الله للعبد، والتكليفُ من الله يناسب هذا الاختيار الممنوح للعبد، ويناسب قدرة العبد وقوته وإرادته التي أعطاها الله تعالى له، فلا جبرية ولا معتزلة.

---

[1] فرس

[2] كثيرة النَّسل

[3] صنف من النخل

[4] التأبير: تلقيح النخل

[5] انظر مسند الإمام أحمد 15284

[6] قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾

﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾: وهو قول الله تعالى بالعذاب والوعيد، فالله تعالى لا يأخذ بالعذاب إلا بعد إقامة الحجة، فإذا فسقوا بعد ذلك وأخذهم بالعذاب أخذهم بحق.

﴿ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾: أي أخذناها أخذاً كلياً، أما المؤمنون فينجيهم الله جل وعلا كما فعل بقوم نوح عليه السلام فنجّى من آمن وأغرق من كفر وكذلك نجّى من آمن بلوط عليه السلام.. وهكذا ..

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

إذا : ظرف لما يستقبل من الزمن، خافض لشرطه، متعلق بجوابه.

فما هو جواب ﴿إِذَا ﴾ في هذه الآية الكريمة؟

الجواب: هو قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ لأنه لا يتم المعنى قبله، وهنا تقديم وتأخير، والتقدير: (وإذا أمرنا أهل قرية ففسقوا فيها أردنا إهلاكها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾ فجواب الشرط هنا هو قوله تعالى: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾ أي : (وإذا أقمتَ لهم الصلاة –وكنت فيهم– فلتقم طائفة) وهذا التأخير والتقديم لئلا يوهم أن إرادة إهلاك القرية هي التي حملتهم على الفسق إنما فسقهم أوجب عليهم إرادة الله جل وعلا التنفيذية بالهلاك.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾

(كم) : تأتي للاستفهام، وتأتي للتكثير، وهي هنا للتكثير في الكمية من القرون والمعنى: (كثيراً ما أهلكنا من القرون).

﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: جمع (قرن) وهو: مدة من الزمان تطلق على الأمة المقارنة بعضها في العمر -فيقال مثلاً: (حصل هذا في قرن العلّامة الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه) أي: المقارنين له من الجيل- وبعد ذلك أُطلق القرن على مدة من الزمن المساوية مائة عام، فالمراد من ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾ في الآية الكريمة: الأجيال المتقارنة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾: لِمَ بدأ سبحانه بذِكر نوح عليه السلام مع أن آدم عليه السلام رسول قبله؟

الجواب: لأن أول من كفر على وجه الأرض هم قوم نوح عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ[1] كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ وَقَعَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ وَعُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ وَالْأَوْثَانُ فَبَعَثَ اللهُ الرُّسُلَ بِآيَاتِهِ وبَيِّنَاتِهِ وحُجَجِهِ البَالِغَةِ وَبَرَاهِينِهِ الدَّامِغَةِ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾)[2].

وإن شيث عليه السلام هو حفيد آدم عليه السلام ثم جاء من ذريته إدريس عليه السلام.

فأول الرسل -الذين جاءوا بالإنذار- هو نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾

---

[1] أي: من قرونهم

[2] انظر (تفسير ابن كثير) عند كلامه حول قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾

وذلك لانتشار المخالفات وعبادة الأصنام فيهم، وكانوا -قبل أن يرسل إليهم نوح عليه السلام- إذا أرادوا أن يعبدوا الله تعالى وضعوا صور صالحيهم أمامهم ليتذكروا بهم ربهم جل وعلا، حتى انتقل الحال فيمن بعدهم إلى عبادة تلك الصور، ثم شكَّلوها أصناماً وعبدوها مع الله تعالى فجاء نوح عليه السلام بالإنذار.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ أي: مُطَّلِعاً على سرائرهم، بصيراً بأعمالهم وظواهرهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾.

﴿مَّن﴾: عامّة

﴿كَانَ يُرِيدُ﴾: أي: هو مصمم عليها، فصار كونه كله إرادة ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾

أما الآخرة فشرط لها شروطاً فقال جل جلاله: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ والسعي: هو الجِدُّ، ففي المشي: الهرولة -كالسعي بين الصفا والمروة- والسعي في العمل: العمل بنشاط ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ فالعمل دون نية هو تجريب لله تعالى.

ذكر ابن أبي الدنيا أن عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كَانَ يُصَلِّي عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فَأَتَاهُ إِبْلِيسُ فَقَالَ: "أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ"؟

قَالَ: (نَعَمْ).

قَالَ: "أَلْقِ نَفْسَكَ مِنَ الجبل وقل: قَدَّرَ عَلَيَّ".

فقال عيسى عليه السلام: (يا لعين! اللهُ يَخْتَبِرُ الْعِبَادَ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ أَنْ يَخْتَبِرُوا اللهَ عز وجل)[1] يعني: إذا أمرني الله تعالى بذلك فعلت لأنه يحق لله تعالى أن يختبرني أما أنا فليس لي أن أختبره، فخنس اللعين وانصرف خاسئاً.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾.

﴿كُلّٗا﴾أي: كلَّ واحد من الفريقين ﴿نُّمِدُّ﴾ مِن (المَدّ) وهو الاستطالة والتتابع، والمعنى: نعطي ونواصل العطاء، فالمدد يكون في الضلال والهدى لكن العبرة للمستمد.. قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ وقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ فالإمداد على حسب الاستمداد.

ومن باب ضرب المثل – ولله المثل الأعلى– فإن مولد الكهرباء يُمِدُّ المصباح للإنارة، ويمد المدفأة للحرارة، ويمد المكيف للبرودة، وهكذا.. فعلى حسب المستمد وقابليته واستعداده يكون الإمداد.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ أي: ممنوعاً حتى ولو كان للكافرين.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾.

---

[1] في كتابه (مكائد الشيطان) ص 77

هناك خطابات في القرآن الكريم موجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمراد بها أمته -كالآيات السابقة- لأن الخطاب يكون دوماً للوجه -وإن كانت علاقةُ الخطاب وموضوعه اليدَ أو الرِّجل فلا يُنظَر إلى واحدة منهما بل يُنظَر إلى الوجه- فالوجه المحمدي صلى الله عليه وسلم هو موضع الخطاب، ويكون موضوع الخطاب وعلاقته: الأُمَّة .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾

القضاء -لغة-: (الحُكْم) ، وفعل ﴿قَضَىٰ﴾ أي: حَكَمَ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ﴾ : تعدى فعل (قضى) بالباء لتضمنه معنى فعل آخر هنا وهو التعليم والعهد، أي: (حكمنا عليهم وأعلمناهم ذلك).

ففي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: حكم حكماً شرعياً، وليس حكماً تكوينياً لأن القضاء -بمعنى الحكم التكويني- نافذ لا محالة؛ وهذا لم يحصل فهناك من عبد غير الله تعالى.

أما القضاء المذكور في قوله تعالى في الحديث القدسي: [إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ][1].. فهو القضاء التكويني.

وإن الحكم التكويني مبني على الإرادة أما القضاء الشرعي فهو مبني على المحبة .

[1] طرف حديث قال عنه في (التيسير): أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي

٭ما الفرق في المعنى بين (القضاء) و(القدر)؟

خلاصة الأقوال: إذا اجتمعت الكلمتان فالقضاء هو (الحُكم) والقدر هو (تنفيذ الحُكم).

فمعنى (قضى): حَكَم أزلاً، ومعنى (قدَّر): نَفَّذَ ما حكم، وهذا ما عليه الأشاعرة -والمعنى اللغوي يؤيد ذلك- وقال الماتريدية بعكس ذلك.

أما إذا أفردت إحداهما بالذِّكر -كما جاء في بيانه صلى الله عليه وسلم للإيمان: [أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ]- فهي تشمل الثانية في المعنى لزوماً، فهما متلازمتان سواء اجتمعتا أو أفردتا بالذِّكر.

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾

﴿أُفّٖ﴾ هل هو اسم صوت أم اسم فعل؟

ذكر الإمام النسفي أنه اسم صوت بمعنى (التضجر)، وهناك من ذهب إلى أنه اسم فعل بمعنى (أتضجر) .

﴿أُفّٖ﴾: تَضَجُّرٌ عام من كل جهة، أما قولك: (أُفِّ) -بكسرة واحدة- فهو تضجر من جهة معينة.

ومعنى الآية: أنه قد يصدر منهما في حالة الكبر أمر مستقبَح أو مستقذَر -مما يحملك على التأفف والضجر- ومع ذلك لا يجوز لك التأفف والتضجر، بل يجب عليك أن تلتزم جانب الأدب معهما.

وفي الآية دليل على أن هناك خطابات موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد بها الأمّة، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدرك والديه الشريفين حتى يوصيه الله بهما .

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي: واخفض لهما جناحك الذليل ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾.

لما نهى سبحانه عن التأفف والتضجر بيَّن أن من صدر منه شيء من ذلك ثم تاب ورجع إلى الله تعالى فالله تعالى أعلم بما في نفسه أي: أعلم بإرادته للتوبة ، فهو تعالى للأوابين غفور، فيغفر للتائب من عقوق والديه كما يغفر لكل مذنب رجع إليه.

والأوّاب هو: الرّجّاع رجوعاً خاصاً إلى الله تعالى تائباً في وقت انشغال الناس فيتحرى أوقات الإجابة ويغتنمها، ومن ذلك صلاة الأوابين بعد المغرب، أو صلاة الضحى عندما يشتد الحر في الصيف، أو قيام الليل، فكل من رجع إلى الله في هذه الأوقات فهو أوّاب، ومقام (الأوبة) أعلى من مقام (التوبة)، فكل أواب تواب، وليس كل تواب أواباً، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِخْوَٰنَ﴾ هنا إخوة مشابهة ومماثلة، والمطلوب منك أن تصير أخاً للملائكة لا أخاً للشياطين ما دام باب الأخوة مفتوحاً.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

الإعراض هنا إعراض بمعنى عدم وجود الخير لديك حتى تعطيهم -وأنت على نية ورجاء من الله تعالى أن يرزقك لتعطيهم- لا إعراض كبر واحتقار

﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾: ليناً لطيفاً على تيسير الأمر لهم، فيكون اسماً لمفعول أو ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾: مصدر على وزن اسم المفعول أي: (قولاً ذا يُسْر).

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

نهى سبحانه عن البخل والإسراف، وأمر بالاقتصاد، وإنما فُهم الأمر بالاقتصاد لأن: (كل أمر يقابله نهي ضمناً، وكل نهي يقابله أمر ضمناً).

و(الاقتصاد) مأخوذ من (القَصْد)، وقد يراد من (القصد): الإرادة، فقولك : (قَصَدَ): أي: أراد، أو يراد منه التوسط.. قال تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: بيان الدِّين الوسط، وقال صلى الله عليه وسلم: [سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِن الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا][1] أي: الزموا السيرَ الوسط في العبادات تبلغوا مرادكم وهو: الله تعالى.

﴿مَّحۡسُورًا ٢٩﴾أي: مُنقطعاً بك لا شيء عندك – مِن: (حَسَرَهُ السفر) أي منعه عن إتمامه–، أو: عارياً حاسر الرأس مكشوفاً.

فائدة:

قول النسفي: (خاطرت امرأة ضرتها) أي: راهنت ، والمراهنة جائزة إذا كانت من جهة واحدة كأن تراهن فلاناً على أمر إذا حصل بأن يدفع لك مبلغاً، أما إذا راهنته على أمر إذا حصل سيدفع لك، وإذا لم يحصل ستدفع له فهذا الأمر يسمى: (القمار) وهو حرام .

ملاحظة:

يورد بعض المفسرين حديث أنه صلى الله عليه وسلم أعطى قميصه –الذي عليه– وقعد عرياناً ...الخ فهذا حديث موضوع، وأول من أورده الزمخشري، ومعظم الأحاديث الذي يوردها مكذوبة لا أصل لها.

وقد نقل عنه بعض المفسرين ذلك كالبيضاوي، ونقل القليلَ منها النسفي، وهناك حديث شبيه بهذا رواه ابن مردويه فهو أيضاً موضوع.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

وقد أوردوا ذلك سبباً لنزول الآية باعتبار أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والحال أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويراد منه الإنسان بشكل عام إذ إن سياق الآيات يدل على ذلك، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ وقوله عز من قائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ -مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدرك والديه الشريفين- تجد أن الخطاب للإنسان بشكل عام.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾

﴿وَيَقۡدِرُ﴾ : يعطي بمقدار الكفاية -وليس المراد: (يُضَيِّق)- فقد يبسط سبحانه الرزق لأحدهم زيادة عن الكفاية، وقد يمسك عنه ذلك فيعطيه الكفاية فقط لحكمة.. قال جل وعلا: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

والمراد بالعباد في هذه الآية الكريمة :أهل العناية المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾.

روى الطبراني وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن ربه تعالى قال: [..... وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ بَسَطْتُ لَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ لَهُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ، وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ.

إِنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِمَا فِي قُلُوبِهِم، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

الولد: هو الذكر والأنثى، فكانوا يقتلون أولادهم بالوأد خشية الفقر.

ويقال: (خَطِئَ يَخْطَأُ خِطْأً وَخَطَأً) .

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

نهى سبحانه عن تعاطي الدواعي المؤدية إلى الزنى مِن نظر ولمس وقبلة: خشية الوقوع في الزنى.

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي ما يبيح قتل النفس وهو : (النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة) -وهذه أسباب أصلية- ،أما الأسباب العارضة التي تبيح القتل فهي كالمدافعة عن النفس والمال والعرض فالأصل فيها مدافعة أدت إلى مقاتلة.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ ولي المقتول : أبوه أو جدُّه أو الحاكم -فهو ولي من لا ولي له- والأصل في القتل أن يرفع الأمر إلى الحاكم، والحاكم يقتله بنفسه أو يوكل قتله إلى ولي المقتول -لئلا يصير الأمر إلى الفوضى-.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾
﴿أَشُدَّهُۥ﴾: اسمُ جمع لا واحد له، وقيل جمع تكسير؛ جمع لـ (شِدّة) أو (شد) أو(شِد) والمعنى: حتى يبلغ قواه الشديدة.

والمذاهب الأربعة تحدد معنى (الأَشُدّ) بالاحتلام أو بلوغ سن خمس عشرة سنة مع شرط أن يبلغ رشده أي أن يكون بالغاً رشيداً، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا﴾ والرشيد هو: الذي يحسن التصرف بالمال، وهو ضد: (السفيه).

وعند الأحناف: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : (الأَشُدُّ) ثَمانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَهِيَ أَقَلُّ مَا قِيلَ فِيهِ ، فَأَخَذَ بِهِ احْتِيَاطًا ، هَذَا أَشُدُّ الصَّبِيِّ ، وَالأُنْثَى أَسْرَعُ بُلُوغًا فَنَقَصَتْ سَنَةً[1] .

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ أي: أوفِ بعهدك مع الله لأنه سَلَّمتَ -أي: استسلمت- له جل وعلا، وأوفِ بعهدك مع النبي صلى الله عليه وسلم بطاعته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فوفاء عهدك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعتك له، وأوفِ بعهدك مع الخلق بحفظ الحقوق وأداء الواجبات والالتزامات والعقود كالبيع والشراء والمعاهدات والود والصحبة، قال صلى الله عليه وسلم: [...وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ] أي الصحبة [مِنَ الإِيمَانِ][2].

﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ أي إن صاحب العهد كان مسؤولاً عنه.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾

---

[1] انظر كتاب (الاختيار شرح المختار) للموصلي 1/ 66

[2] طرف حديث في (مستدرك الحاكم) و(المعجم الكبير) للطبراني

(القسطاس): أصله (قسط طاس) فالقسط هو العدل والطاس الوعاء، والأكثر على أن هذه الكلمة مُعَرَّبة.

ملاحظة:

الكلمات التي وردت في القرآن الكريم -وقيل عنها: (إنها مُعَرَّبة) - مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾

الحق أن تلك الكلمات التي قيل عنها: (إنها مُعَرّبة عن لغات أجنبية لكثرة استعمال العرب لها) هذا الأمر غير صحيح، والأصل فيها أنها عربية وأما ورودها في لغات الأعاجم فهذا من باب توافق اللغتين على هذه الألفاظ .

فمثلاً العرب يستعملون كلمة: (قسطاس) للميزان والعجم يستعملون (قسطاس) للميزان أيضاً فهي كلمة اتفقت عليها اللغتان... وهكذا ...

﴿تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾: مآلاً في الآخرة مِن: (آل - يؤول - أيلاً فهو آيل) أي: راجِعٌ .

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾

﴿تَقۡفُ﴾: (تتبع) مِن (قفا -يقفو- فهو قافٍ) مثل: (عدا -يعدو) ومعناه: (اتَّبع قفاه) ثم أُطلقت على كل تتبع.

أما: (قاف- يقوف- قيافة فهو قائف) فهو علم تتبع أثر الغير.

أي: لا تتبع ما ليس لك به علم لم يثبت بدليل قطعي، أما تَتَبُّعُ ما قيل وقال مِن أوهام وأباطيل وشكوك فهذا منهي عنه.

﴿عِلۡمٌ﴾: هو العلم الثابت بالدليل القطعي من آية أو حديث متواتر أو علم غلبة الظن، وقد سمى القرآن الكريم (غلبة الظن): (علماً)، والقرآن خبره متواتر،

فجرى علم غلبة الظن مجرى العلم القطعي.. قال تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ وعِلمُنا بإيمانهن ليس قطعياً -لأننا لم نكشف على قلوبهن- بل صار عندنا علم ظني بأنهن مؤمنات.

وهناك كثير من الأحكام العملية والتعبدية يُعمل بها بالعِلم الظني -كشهادة عدلين، وخبر الواحد الذي كان يبعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى القبائل لتعليمهم دينهم وهكذا.. - إلا في قضايا الإيمان والتوحيد فيحتاج الأمر إلى دليل قطعي من آية كريمة أو حديث شريف.

ومسألة الأخذ بالقياس فيها خلاف فالظاهرية لا يأخذون بالقياس بل يقفون عند ظاهر النصوص استدلالاً بهذه الآية، فقالوا: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ أي علم قطعي، والقياس أمره ظني لا يوجب العلم الجازم).

وَرُدَّ عليهم بأن الآية ليست دليلاً إذ إن المراد من العلم هو العلم الجازم والظني لأن العلم يُطلق على معنيين: جازم وظني، وقد سمى القرآن غلبة الظن علماً كما سبق، فمعنى الآية: (اتّبع ما يوجب علماً قطعياً أو ظنياً، ولا تتبع الشبهات والأقاويل والأوهام وما ينقله الجهال).

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾

المرح -عند أهل اللغة- هو: شدة الفرح.

وهناك فرح ممدوح.. قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، وهناك فرح مذموم وهو الذي يحمل صاحبه على الفخر والكبر.

فالمراد هنا من (المرح): شدة الفرح التي تحمل صاحبها على الفخر والكبر؛ كأن يفرح بكثرة ماله أو علو منصبه أو يفرح بعلمه.

قال بعض المفسرين: (كان المرح في أهل الدنيا ثم صار في العلماء) وبذلك يذمُّ مَن تعلم شيئاً مِن شرع الله -بغية المباهاة والمفاخرة والتكبر على الناس- بل المطلوب منك أن تمشي على الأرض هوناً ليناً متواضعاً، أما بالنسبة للأعداء إذا بغوا عليك فتتكبر عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿مَرَحًا﴾: مصدر، والمصدر لا يأتي حالاً فكان تأويله: (ذا مرح) لأن المصدر جامد، وهو مصدر اشتقاق -أي: منه الاشتقاق وهو لا يُشْتَقُّ- والحال مشتق كاسم فاعل أو مفعول.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾: لا تتطاول تكبراً، وعندما يُنهى عن شيء ففيه الأمر بضده وهو التواضع.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾

﴿سَيِّئُهُۥ﴾: أي سيّيء ما سبق ذِكره من الأوامر والمَناهي.. ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾.....

وهناك قراءة متواترة: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً﴾

وهنا يرد سؤال: لِمَ لم يُقَل: (مكروهة) حسب هذه القراءة؟

نعم لأن كلمة: ﴿سَيِّئَةً﴾ أخذت حكم الأسماء وخرجت عن كونها في حكم الصفات -وذلك لكثرة الاستعمال- فأخذت حكم الأسماء الجامدة بمعنى: الذَّنْبِ، فالسرقة ذنْب ولا يقال عنها: (ذنْبة) -أي: غلبت عليها الاسمية وسلبت عنها الوصفية-وعلى هذا فالمراد من قوله تعالى: ﴿سَيِّئَةً﴾: ما سبق من المناهي فقط.

وهناك أوامر أيضاً فما هي سيئة الأوامر؟

نعم، قوله تعالى: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ يشمل جميع المناهي والأوامر لأن الآيات السابقة ما بين مَناهٍ صريحة وما بين مَناهٍ ضمنية؛ ضد الأوامر .

والقاعدة تنص على أن: (الأمر بشيء يقتضي النهي عن ضده، والنهي عن شيء يقتضي الأمر بضده) فعندما نهى سبحانه عن الزنا أمر بالعفاف، وعندما أمر بصلة الرحم نهى عن قطعها وهكذا ...

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾

وقد افتتح سبحانه هذه الأوامر والمناهي بالأمر بالتوحيد والإيمان واختتمها بذلك لأن التوحيد رأس الحكمة، ومن لم يكن عنده إيمان فلا فائدة من حكمته وفلسفته، وقد قالوا: (لا خير في فلسفة دون دين، إذ لا خير في مَن أَوَّلُهُ "فَلْ" وآخره "سَفَه")!

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ٤٠﴾خطاب للجاهليين الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة إناث اتخذهنَّ الله له، فخاطبهم -على رأيهم وزعمهم أنهم لا يرضون لأنفسهم البنات ويقدِّمون الذكور كما أخبر سبحانه عنهم بقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾... الآيات- فكيف يرضونها لله -على زعمهم- فهذا عقلاً ومحاكمة لا يجوز..-وهو من باب التهكم عليهم-.

علماً أن الملائكة عليهم السلام هم جنس ثالث لا يتصفون بالذكورة ولا بالأنوثة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١﴾

﴿صَرَّفۡنَا﴾: كثيراً ما تتردد هذه الكلمة حسب المناسبة في الآيات، والتصريف هو: (تنويع الشيء وتلوينه) فتصريف الرياح -مثلاً-: تلوينها، ومنه: (علم الصرف) وهو: تلوين الكلمة الواحدة إلى عدة أنواع – كاسم الفاعل واسم المفعول وهكذا-.

﴿صَرَّفۡنَا﴾: نَوَّعْنا وأتينا من البيان في آيات متعددة تدل على أنه تعالى منزه عن اتخاذ الولد، وأنه سبحانه غني عن العالمين، فصرّف سبحانه هذا المعنى بأدلة وبراهين متنوعة.. قال عز وجل:

﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾: لم يلد مِن أحد

وقال عز من قائل: ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ أي: لم يَتبنَّ ولداً.

فجاء بألوان وأنواع من البلاغة والبراهين الدالة على أنه جل جلاله (أَحَدٌ) -أي: غير مُرَكَّب- (فَرْدٌ) لا نِدَّ له[1] (واحد) لا شريك له، ولا له كيفية يسأل عنها بـ "كيف" إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ تبارك وتعالى.

---

[1] الند هو المقابل؛ سواء كان المقابل بالضد كمقابلة الملك بالشيطان والمؤمن بالكافر، أو المقابل بالنوع كمقابلة الذكر بالأنثى.

أما الكفار فاتخذهم سبحانه أعداء له بمعنى أبغضهم.

ملاحظة:

القدرة لا تتعلق بالواجب ولا بالمستحيل بل تتعلق بالممكن فقط، وذلك لأن القدرة لها تأثير، وبها يكون الخلق، فهي تؤثر على المعدوم فتوجده، وتؤثر على الموجود فتعدمه.

والواجب هو: ما لا يُتَصَوَّرُ في العقل عَدَمُهُ، فهو واجب لا يُعدَم، فلا تأثير للقدرة عليه لأنه واجب، وهو موجود لا يمكن عدمه، وكذلك المستحيل يستحيل وجوده فلا تأثير للقدرة عليه، والمستحيل هو: ما لا يُتَصوَّرُ في العقل وجوده... بقي الممكن فهو قابل للعدم والوجود وهو محل تأثير القدرة.. فكلمة ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾ أي: على كل شيء ممكن -لأن القدرة تتعلق بالممكنات- أما كلمة ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧٥﴾ فهي تشمل الممكن والواجب والمستحيل؛ لأن العلم هو إدراك المعلوم ولا تأثير له، فيتعلق بالواجب على أنه واجب فهو يدرك ذلك ويحيط علماً به، ويتعلق بالمستحيل على أنه مستحيل فهو يدرك ذلك ويحيط علماً به، ويتعلق بالممكن على أنه ممكن وهو يدرك ذلك ويحيط علماً به .

أما القدرة فلها تأثير فبالقدرة يخلق سبحانه لا بالعِلم..

وهنا يزول الإشكال فيما لو سأل أحد: "هل ربنا قادر على خَلْقِ إله آخر مثله؟"

والجواب أن القدرة لا تتعلق إلا بالممكنات فأصل السؤال باطل، ولو فرضنا أنه سبحانه خلق إلهاً مثله فالإله الثاني صار مخلوقاً، والله تعالى خالق غير مخلوق فهو إذاً ليس مثله ...

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾

كان المشركون يُثبتون وجود الله وأنه خالق الكون .. قال جل وعلا: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لكنهم كانوا يشركون مع الله آلهة في العبادة -وهي الأصنام- ويقولون كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ والمراد: عبادة المشركين للأصنام.

فلو كانت الأصنام آلهة مع الله -كما يدّعون- فإن الآلهة عندئذٍ ستبتغي سبيلاً يوصلها إلى الله إما تقرباً إليه وتعززاً به، وإما تقرباً للتغلب عليه لأن هذا شأن الملوك إذا تعددت، وهذا غير حاصل، فدعواهم كذب وافتراء، سبحان الله وتعالى عن ذلك.

هل تُطْلَق كلمة (الإله) على غير الله –من الآلهة المعبودة بغير حق– أم لا تطلق؟

هناك خلاف بين العلماء؛ فمنهم من قال: إن كلمة (الإله) تطلق على الإله الحق وغير الحق بدليل ما جاء في الآية: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ وغيرها من الآيات.. فسماهم الله تعالى ﴿ءَالِهَةً﴾.

لكن الأكثر على أن كلمة (الإله) لا تطلق إلا على الإله الحق وهو الله سبحانه وتعالى، ولو أُطلقت في القرآن الكريم فهي من باب التهكم أو على زعم مَن يعبدها مِن دون الله ...قال تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ فأطلقوا عليها لفظ (الآلهة) مثل: هُبَل واللات وهكذا... أما أسماؤها الحقيقية فهي: (حَجَر) أو (صنم) وكذلك كَفَرَة بني إسرائيل أطلقوا على العِجل اسم (إله).

قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾... الآية، أي: ارفعوا ما أطلقتم عليهم من أسماء واذكروا حقائقهم، فالصنم صنم ليس بإله، والعِجل عِجل ليس بإله.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ وعلى قراءة ﴿يُسَبِّحُ﴾[1] القاعدة تقول: (إذا فَصَلَ فاصل بين الفاعل وفعله يجوز تذكير الفعل أو تأنيثه).

---

[1] وهي قراءة السادة القرّاء: نافع وأبي جعفر وابن عامر وشعبة عن عاصم رضي الله عنهم أجمعين، انظر (طيبة النشر).

فما من شيء إلا وهو يسبّح بحمد ربه جل وعلا، ولكنا لا نفهم ذلك إما: لاختلاف اللغات -كلغة الحيوانات والطيور-، أو لعدم سماعنا ذلك -كتسبيح الحصى والجمادات والأشجار-.

وقد سمع الصحابة تسبيح الماء والطعام في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وذلك لقوة النور المحمدي الكاشف لحقائق وخفايا الأمور.

قوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: (ذا ستر) مِن باب النسبة، وتأتي على وزن فاعل مثل (تامر) أي: بائع التمر، وليس بيع التمر صفة قائمة به بينما (العالم) تكون صفة العلم قائمة به .

وتأتي النسبة على وزن مفعول فيكون معنى قوله تعالى: ﴿مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾: الحجاب الذي يستر الشيء عن غيره، فالمعنى: (ذا ستر) -على معنى النسبة-، وقد يراد اسم المفعول على حقيقته فالحجاب مستور فهو حاجب لمن يحتجب، وهو مستور عمن هو وراء الحجاب أي: يحجب الإنسان ولا يُرى .

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ : أي: صمماً يصمّهم عن سماع روح القرآن فلا يصل إلى قلوبهم، بل يسمعون الألفاظ فقط.

---

[1] جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ)، وجاء في (الدر المنثور) للحافظ السيوطي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه وهو يُشرب) وعزاه إلى النسائي وابن مردويه.

وقد جعل الله تعالى فيهم ذلك انتقاماً منهم لأنهم أعرضوا عن الإيمان بعدما اتضح لهم الحق وبان.

فعندما يصل الكافر إلى درجة كبيرة من الجحود -بعدما تبين له الحق وظهرت له البينات من براهين ومعجزات- ويظل يجحد: عندئذ يطبع الله على قلبه فلا يؤمن، قال جل وعلا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

كلمة: ﴿وَحْدَهُۥ﴾: مصدر يراد به اسم الفاعل أي: (واحداً).

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: نحن أعلم بالحال المتلبِّس بهم عند استماعهم وهو حال الإعراض والشك والاستهزاء.

﴿نَجْوَىٰٓ﴾: (ذوو نجوى) تقول : (هم عدل) أي: (ذوو عدل).

وقد تمسّك المعتزلة بهذه الآية للاستدلال على إبطال أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سُحِر، وقالوا: لو أنه صلى الله عليه وسلم سُحِرَ فعلاً لَصَدَقَ المشركون فيما ادعوا أنه مسحور .

أما أهل السنة فأثبتوا السحر وأن له تأثيراً واقعياً في جسم المسحور، والكل بإذن الله تعالى.

وقد قرن سبحانه في سورة الفلق بين الساحر فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾وبين الحاسد، فقال جل جلاله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ فالحاسد له أثر، والساحر له أثر.

وقد ورد في الأحاديث في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحِرَ من قِبَل لَبِيد بن الأَعْصَم، لكن السحر لم يؤثر على عقله وتفكيره صلى الله عليه وسلم فما برح يبلّغ الوحي؛ إنما أثر على جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم كالتَّوَعُّك[1]، وكان يخيَّل إليه أنه فعل الشيء وهو يعلم أنه ما فعله، فالأمر تخييل فقط وهو صلى الله عليه وسلم يعلم الحق.

ومثال ذلك ما وقع لموسى عليه السلام كما أخبر سبحانه عنه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ -وهو عليه السلام يعلم أنها لا تسعى-.

والمعتزلة يقدّمون العقل على النقل بخلاف أهل السنة.

والحق أن المشركين عندما قالوا: (إن النبي مسحور) أرادوا بذلك أن السحر مؤثّر على عقله وفكره كباقي المسحورين.

ولكن الواقع أن السحر لم يؤثر على عقل النبي صلى الله عليه وسلم وفكْره.

[1] قال في (لسان العرب): الوَعْكُ: الأَلَم يجده الإِنسانُ من شِدّة التعب. اهـ 10/ 514

الحكمة مِن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد سُحِر

عندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات المتنوعة -وادّعى المشركون أنه ساحر- كانت المعجزات التي جاء بها صلى الله عليه وسلم تدل -حسب زعمهم- على أنه أسحَرُ أهل الأرض ولو كان صلى الله عليه وسلم كذلك -حاشاه من ذلك- لما أَثَّر فيه السحر؛ لأن الساحر الماهر لا يتأثر بسحر غيره له ، ولكنه صلى الله عليه وسلم سُحِرَ مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ليس بساحر.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٤٨﴾

قد يطلق المَثل على الوصف.. كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي: وصفها ،وقد يراد به التمثيل والتشبيه .

فمرة قال المشركون عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه شاعر" ومرة قالوا: "إنه ساحر" ومرة قالوا: "إنه مجنون" فكيف يكون الإنسان شاعراً ومجنوناً في آن واحد؟!

فقد ضلوا في ضربهم الأمثال، وكلامهم يناقض بعضه بعضاً.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ إنهم استبعدوا الإعادة بعد الموت وبعد أن يبلى الجسم ويصير عظاماً ورفاتاً، فهب أنهم كانوا من حجارة أو حديد أوليس الذي خلقهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم بعد تفتت عظامهم؟

﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾
فعل (أَنْغَضَ): مِن: (الإنغاض) أي: حَرَّكَ رأسه على وجه التهكم والاستهزاء.
﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾
هذه دعوة إسرافيل وصيحته عليه السلام ليقوم الناس من القبور فيستجيبون -رغماً عنهم- لأنهم أدركوا وآمنوا بذلك -بالقوة والعذاب- ولو ارتفع عنهم العذاب لكفروا، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ لذلك لا ينفعهم إيمانهم.
قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ المراد: العباد الخواصّ؛ يأمرهم سبحانه بأن يقولوا للمشركين الكلمة التي هي أحسن مثل: (يهديكم الله) و(وفقكم الله للإيمان) و(غفر الله لكم) -أي: مغفرة تأخير العذاب لعلهم يؤمنون وليس مغفرة محو الذنوب لأن الله ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وقد قال صلى الله عليه وسلم: [اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون] أي أَخِّرْ عنهم العذاب لعلهم يؤمنون- وألا يقابلوهم بالغلظة والخشونة بقولهم لهم: (يا كفار) (يا ضُلّال) ....
﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾
أي إذا لم تقابلوهم بالتي هي أحسن فإن الشيطان ينزغ بينكم، أو قولوا لهم: -وهي الكلمة التي هي أحسن-: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ وهذا يشير إلى أنه من باب أولى أن تقال الكلمة التي هي أحسن للفاسقين من المؤمنين.

وعندما عَرَضَ موسى عليه السلام الإيمان على فرعون عرضه عرضاً لطيفاً بكلام لطيف، قال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ وقال جل جلاله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾.

قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝٥٥﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أفضلية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لأن الزبور الذي آتاه الله داود عليه السلام-وهو معترف به عند اليهود والنصارى - كتب الله فيه ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ -وهم محمد ﷺ وأمّته-، وقد انتشر دين الإسلام وعمَّ بقاع الأرض مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم:

[لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ][1].

[1] كما في (المعجم الكبير) للطبراني وهو في مسند الإمام أحمد بلفظ: [لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ].

والمراد في الآية السابقة من ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: أرض الدنيا هذه، أما من قال: (هي الجنة) فهذا أمر قطعيّ جاءت آيات ثانية تثبته، وسياق الآيات هنا يدل على أن المراد: أرض الدنيا لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ أي: عابدين في الدنيا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من الأرض أرض الجنة؛ وهذه ليست خاصة بأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ إن إبراهيم عليه السلام قال كما جاء في الآية: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾

فقد أخبر سبحانه في هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ أنه ذَكَرَ في زبور داود عليه السلام أن الأرض -المعهودة الآن عندنا- سيرثها الصالحون من عباده من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنَّ سيطرتهم ومملكتهم ستعمّ الأرض.

وقد حقق الله ذلك في الفتوحات الإسلامية فسيطروا على جميع أطراف الأرض المعمورة بالسكان، وكذلك المهجورة -كأراضي القطبين- فسكانها ما بين مسلم أو ذمّي.

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: [لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ].

وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: (قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ)[1].

فإما أن يعتز ذلك البيت بالإسلام، أو يذل، فهذا أمر لا بد منه.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾ إشارة إلى أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء، أي: وآتينا داوود زبوراً الذي فيه ذِكر مَن هو أفضل الكل ومَن أمته أفضل الأمم .

ويرد هاهنا سؤال:

كيف التوفيق بين هذه الآية وآية: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وبين الآية: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾؟

فالآية: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي: من حيث الإيمان لأن بداية الآية: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾فلا نفرّق بينهم من حيث الإيمان بهم؛ بل نؤمن بأن الأنبياء أنبياء والرسل رسل كما أخبر تعالى، ولا نكون كاليهود والنصارى فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى، أما مقامات التفضيل فثابتة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فالأنبياء عليهم السلام بعضهم أفضل من بعض، والرسل عليهم الصلاة والسلام بعضهم أفضل من بعض.

---

[1] 16344

هل تتفاضل مرتبة النبوة؟

أكثر المفسرين يقولون: (إن مرتبة النبوة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل يأتي بالتخصيص بالكتب الإلهية) وهذا التأويل بعيد -وإن كان الأكثرون عليه- فرتبة النبوة نفسها تتفاضل، وليس كل الأنبياء على حدٍّ واحد، فالنبوة مقام كبير فوق مقام الولاية الكبرى، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتفاضلون من حيث النبوة، والقاعدة الأصولية تقول: (تعليق الحكم على المشتق يُؤْذِن بِعِلَّة الحكم) مثل: (أكرمتُ زيداً العالم) فقد أكرمته بسبب علمه ، فتعليق الأمر على المشتق وهو كلمة (العالم) يؤذن بعلة الحكم، فسبب إكرامه أنه عالم.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: لأن نبوتهم مختلفة، فنفس الآية تبيّن حكمة وعلة التفضيل، كما في الآية: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فنفس الرسالة تختلف فهناك رسالات أوسع من غيرها، فسليمان عليه السلام لم ينزل عليه كتاب وإنما كان يعمل بالتوراة، وكذلك داود عليه السلام كان يعمل بالتوراة ، إنما الزبور الذي نزل عليه هو مواعظ فقط، فموسى عليه السلام أفضل لأنه صاحب رسالة وشريعة واسعة، ففي الرسالة نفْسها مراتب وفي النبوة نفسها مراتب، وأفضل الأنبياء والمرسلين فاتح النبوات وخاتمها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾.

وفي قراءة متواترة : ﴿وَخَاتِمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1] فكلمة ﴿خَاتَمَ﴾ أي: ما يُختم به الشيء، فختم الله تعالى النبوات بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والختم يقتضي الاستيعاب يعني استيعابَ جميع مراتب من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وختْمَها، فختم الله به النبوة.

وكلمة ﴿خَاتِمَ﴾ أي ختمَ صلى الله عليه وسلم نبوّات مَن قبله -أي تمّت له وزاده الله نبوة محمدية خاصة من عنده-.

فنبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هذه النبوات كلها مطوية في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ففي نبوته ﷺ تجد نبوة الكل ورسالاتهم، ولكنه صلى الله عليه وسلم لا تجده في أحدهم عليهم جميعاً الصلاة والسلام، فهو صلى الله عليه وسلم مشتمل على الكل وليس في أحدهم، ولذلك جاءت الآية: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فهو صلى الله عليه وسلم يُغْني عن الكل ولكنهم لا يغنون عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي][2] لأن نبوة موسى ورسالته عليه الصلاة والسلام مطوية في شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه هي الرواية الصحيحة كما في الترمذي وغيره..

---

[1] في قراءة الحافظ عاصم رحمه الله تعالى ورضي عنه.. انظر (طيبة النشر).

[2] طرف حديث في مسند الإمام أحمد 14623

أما رواية: [لو كان عيسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني] فهي رواية مردودة لأن عيسى عليه السلام حي، وسيتبع سيدَنا رسولَ الله ﷺ عندما ينزل عليه السلام آخر الزمن، ولذلك جاءت الآية: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾ فمفهومها أن كل قوم لهم هادٍ لكن بالتدبر يتضح أن مفهومها: (إنما أنت منذر وهاد لكل قوم) فهو ﷺ هادٍ للأمم السابقة واللاحقة، ولو أدركوا زمنه ﷺ لوجب عليهم اتباعه كما نصت الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ فالحاصل أن التفضيل بالنبوات ثابت بنص الآية وعلى ظاهرها ولا حاجة إلى تأويلها .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝٥٥﴾ (الزبور): كلمة مشتقة على وزن (فَعُول) مِن (الزَّبر) وهو الجمع والقوة، فيقال: (رجل زَبْرٌ) أي قوي كأنه مجمع رجال، ويُصغَّر فيقال: (زُبَيْر)[1].

وسمي زبور داود عليه السلام (زبوراً) لأنه مجمع مواعظ قوية التأثير، وكل كتاب إلهي نازل من عند الله يقال له: (زبور).. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ يعني: في كتب الأولين.

---

[1] قال الإمام النووي في (المجموع) 6/ 358: (وَذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي الْحَاوِي أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَاصَلَ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا..) رضي الله عنهما وأرضاهما.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ إما عائد على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن النازل عليه، أي: إنه مُحَدَّث عن القرآن الكريم وعن سيدنا محمد في كتب الأولين من صحف شيث وإبراهيم وتوراة موسى عليهم الصلاة والسلام... فكل واحدة منها تسمى (زبوراً) والكل (زُبُر)..

وقال تعالى مخاطباً كفار قريش: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ فأراد سبحانه بـ ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ هنا: القرآن الكريم.

فـ (الزُّبُر) من حيث الوصف تطلق على جميع الكتب الإلهية، ولكن من حيث الاسم إذا أطلق فيراد منه (زبور داود) عليه السلام.

كما أن اسم (قرآن) إذا أطلق يراد منه: (القرآن النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)، أما من حيث الوصف فيقال عن زبور داود عليه السلام (قرآناً) على اعتبار أنه يُقرأ.. كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام الْقُرْآنُ] أي: الزبور [فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ][1].. الحديث وهذا تيسير وإكرام من الله تعالى..

وقد يكرم الله بعض الصالحين والقراء فيقرؤون القرآن بين المغرب والعشاء، ولا تسمى قراءتهم (هذًّا) إنما هي تخفيف من الله تعالى، وكلٌّ واحد على حسبه.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وفي رواية في صحيح البخاري أيضاً: [خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ لِتُسْرَجَ فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ] وجاء في صحيح ابن حبان: [خفف على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرَج، فيفرغ من قراءة الزبور قبل أن تسرج دابته].

و(الزبور) -وصفاً- كل كتاب أنزله الله تعالى، و(الزبور) -عَلَماً- الكتاب النازل على داود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر -مِن مرض أو فقر أو عذاب- ولا أن يحوّلوه من واحد إلى آخر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ٥٧﴾.

اختلف العلماء في المراد من الآية والوارد الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أناس من الصلحاء قبل نوح [1] عليه السلام وكانوا على شريعة شيث عليه السلام [2] فلما مضت عشرة قرون وتوفي هؤلاء الصلحاء كان ناس عندما يعبدون الله يضعون صوراً وتماثيل لأولئك الصلحاء كي يأخذهم الخضوع والخشوع إذا نظروا إليهم وكي يتذكروهم أيضاً، ثم تقاربت العهود وظنت الأجيال بعدهم أن آباءهم كانوا يعبدون هذه الصور والتماثيل فراحوا يعبدونها، فأرسل الله نوحاً عليه السلام أول نذير إلى أهل الأرض، وهذه الأصنام كان لها أسماء: (يغوث) و(يعوق) و(نسر)، وهي أسماء رجال صلحاء كما قال ابن عباس لكن عبدوهم من دون الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي إن أولئك -الذين تعبدونهم- كانوا صلحاء يعبدون الله ويبتغون القرب إليه.

---

[1] ما بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم كانوا على الفطرة والإسلام

[2] وهو من أحفاد آدم ويليه إدريس، عليهم جميعاً الصلاة والسلام

وقد استمرت عبادة الأصنام حتى انتقلت إلى جاهلية العرب وراحوا يمثّلون الصلحاء وغيرهم ويعبدونهم .

ففي الآية يذكر الله تعالى الصدر الأول الذي كان سبباً في إدخال الشرك إلى العالم ويبين لمن يعبدهم: (إذا كنتم تعبدونهم فيجب أن تعبدوا الذي كان يعبده هؤلاء الصلحاء من يغوث ويعوق ونسر وغيرهم؛ فهم كانوا : ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القُربة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فكان هؤلاء الصلحاء -الذين تعبدون تماثيلهم- كان همّهم التقرب إلى الله تعالى بالتوسل إليه بالصالحات والطاعات .

أو: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾: أي أنهم يعبدون الله ويحرصون أن يكونوا أقرب إلى الله من غيرهم، فكل واحد يحرص أن يكون أقرب من الآخر.

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾: هو ما يتوصل به إلى شيء آخر؛ تقول : (توسلنا لفلان بفلان) أي : جعلناه واسطة لنا، فالوسيلة إلى الله تعالى إنما هي الأعمال الصالحة كما قال جل وعلا: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وكل ما يقربك إلى الله فهو وسيلة، فقد تتوسل إلى الله بأعمال صالحة كما توسل بذلك الثلاثة الذين دخلوا الغار وأطبقت الصخرة مدخله فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم .

وقد تتوسل إلى الله بالصالحين وبأعمالهم، وأعظم وسيلة إلى الله تعالى: سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكيف لا يجيز بعضهم التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم؟!

إننا نقول لهم: إذا جاز لنا أن نتوسل إلى الله تعالى بصالح أعمالنا -على فرض أنها صالحة ومقبولة عند الله تعالى- ونرجو الله ذلك.. آمين، فمهما كانت أعمالنا صالحة ومَرْضية عند الله جل وعلا فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أقرب وأصلح من أعمالنا إلى الله عز وجل وهو مرْضي مقبول عند الله تعالى، فنفس الآية تثبت التوسل إلى الله تبارك وتعالى بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول بعضهم : ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي الأعمال الصالحة فقط .

فنتساءل: هل عملك الصالح محبوب ومقبول عند الله تعالى أكثر أم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

لا شك هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا صح التوسل بصالح أعمالنا فهناك شيء أولى وأرضى إلى الله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم -وهذا من باب القياس الأَولوي- ومثاله: لما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ .. الآية .. ففيها النهي -من باب أولى- عن ضربهما -وإن لم يرد فيها النص بذلك صراحة- لكن لمّا ذكر النهي عن قول (أفّ) وهو دون الضرب كان النهي عن الأعظم – وهو الضرب- منهياً عنه من باب أولى.

ما معنى (الوسيلة) في دعائنا: [اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً ﷺ الوسيلة والفضيلة...] ؟

الوسيلة هي: منزلة في الجنة أقرب ما تكون إلى عرش الله تعالى.. قال عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:[إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ][1] فلما خصَّ الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ بمنزلة الوسيلة دل على أن الخلق يتوسلون به ﷺ إلى الله تعالى فهو ﷺ أعظم وسيلة .

[1] صحيح مسلم كتاب الصلاة

ما معنى: (القرب إلى الله تعالى)؟

(القرب إلى الله تعالى) لا يعني القرب الجسماني الحسّي، ولا القرب الروحاني لأن الله تعالى ليس بروح، وهو جل جلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

أما ما ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا...][1] الحديث؛ فهو من باب بيان النسبة في التقرب وضرب المثل، أي: أن الله يقرِّب العبد ضعف ما يتقرب العبد، لأنه عز وجل يريد قرب عبده إليه .

فأنت متقرِّب وهو سبحانه مُقرِّبك، فمنك الاقتراب والتقرب، ومنه جل جلاله التقريب والقرب، قال عز من قائل: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ فالمقرَّبون تقرَّبوا إليه سبحانه وتعالى فقرَّبهم .

وأوضح تعريف للقرب ما قاله القُشَيري: (القرب هو شعور العبد بقرب القلب من الرب جل جلاله).

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار

فتدل آية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ على أن مقصود الصلحاء والمؤمنين والأولياء هو: القرب من الله تعالى، ووسيلته: الأعمال الصالحة.

والقرب نوعان: قرب الفرائض وقرب النوافل، فقرب الفرائض يجعلك من الأبرار (أصحاب اليمين)، وقرب النوافل يجعلك من السابقين (المقرَّبين)، فإذا تحققت بمقام قرب النوافل صرتَ مُحِباً ومحبوباً بعد أن كنت محِباً بدليل قوله تعالى في الحديث القدسي: [ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه] وهذا هو المطلوب: أن يحبك المحبوب، إذ إن حُبك لله ليس بعجيب لأنه يجب عليك محبة الله لأنه سبحانه متصف بالجمال والكمال المطلق، وهو ربك وأنت عبده، فالغاية والمقصود أن يحبك هو جل وعلا.

ولكن لماذا يحبك جل وعلا؟

نعم؛ لأنه تبارك وتعالى عندما يحبك يلقي عليك من آثار أسراره وأنواره فيحب ما أودعه فيك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

لأنه سبحانه وتعالى محسن فظهرت صفته في المحسنين فأحبهم، وهكذا الكرم وسائر صفات الكمال..

وهو سبحانه يُبغِض البخيل لأنه تعالى غير متصف بالبخل.

وهكذا فالقرب نوعان، وكل نوع تحته فصول ومراتب.

واعلم أنه إذا كَمُل للإنسان قرب النوافل وصار من المقرَّبين تجري عليه أحكام مقام المقربين وهي ما جاء في قوله تعالى في الحديث القدسي: [وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها].

وفي رواية : [ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به][1] الحديث .

[ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه][2] أي: تظهر عليه الكرامات، وهي مقتضى قرب النوافل.

أما أن تدَّعي أنك صاحب مقام المقرَّبين مع كونك لا تنطبق عليك أحكامه فدعواك باطلة ..

فقد يجمع الله لصاحب مقام القرب كل الكرامات أو بعضها كإجابة الدعاء أو سرعة الخطوة -فتكون سرعته كسرعة الملائكة عليهم السلام-، فهذه المراتب مُرَتَّبَةٌ على القرب، لأنه من تقرَّب إلى القوي اشتدت قُواه، ومن تقرب إلى العزيز صار عزيزاً، ومن تقرب إلى العليم صار عليماً، وهكذا...

ولذلك نبّه تعالى في الآية ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ إلى أن تكون غايتنا ومقصودنا: القرب.

---

[1] المعجم الكبير للطبراني

[2] صحيح البخاري كتاب الرقاق

وإن أقرب المقرَّبين وإمامهم الذي نال مقاماً في القرب لم ينله أحد غيره -وهو مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بل أدنى-: هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولو أن أحداً من العالمين [1] أقرب إلى الله تبارك وتعالى من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لشَفَّعه الله في أهل الموقف، ولكن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو أقرب الناس إلى الله تعالى لذلك يتقدم هو عليه الصلاة والسلام ليكشف الغضب الأكبر الذي تجلّى الله به على أهل الموقف، فيقال له: [يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ] [2] أي: أنت وحدك من يُسمع له الآن، فتنفض أهوال الموقف بوجاهة وجهه الشريف وفضل قربه صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾: فقد وصف تعالى الصلحاء بأن مقصودهم وغايتهم هو القرب فهو أعلى وأشرف المقامات، ثم وصفهم بأنهم يرجون رحمته سبحانه، ومن جملة رحمته جل جلاله: الجنة؛ لأنها جنته سبحانه وتعالى.

وهم يخافون عذابه تبارك وتعالى لأنه عذابه سبحانه، لا لمجرد كونه عذاباً فأنت -مثلاً- إذا رأيت السيف معلَّقاً فإنك لا تخاف منه، ولكنك تخاف من اليد التي ستمسك السيف وتضرب به.

---

[1] وكلمة (العالَمين) تشمل جميع خلق الله من ملائكة وإنس وجنّ

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

فيخافون عذابه سبحانه لأنه عذابه جل وعلا، فلما خافوا من النار يعني هم خافوه هو سبحانه وتعالى لأن النار فيها عذاب الله تعالى، والنار لا تخوِّف من ذاتها فقد يجعلها برداً وسلاماً –كما هو الحال عندما يمر المؤمن وتقول له : [جُزْ يا مؤمنُ فقد أطفأ نورُك لهبي][1] وكما هو حال الزبانية الموكَّلون بتعذيب الكفار في النار فهم لا يخافون النار لأنه تعالى لا يريد عذابهم لذا هي لا تؤثر فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي: وما من بلدةٍ عامرة ﴿إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾[2] يخبر سبحانه عن نهاية الدنيا وتخريب البلاد بالإماتة أو بالعذاب.

وقد يطلق (الهلاك) على الموت كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي مات.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

[1] طرف حديث عزاه في كنز العمال إلى الطبراني وأبي نعيم في الحلية

[2] القصة المذكورة حول هذه الآية في تفسير النسفي غير ثابتة وقد نقلها بعض المفسرين أيضاً

المنع: (أن يَكُفَّكَ الغيرُ عن الشيء) وهذا المعنى يستحيل في حق الله تعالى فلا أحد يمنعه من شيء، لذلك كان المراد: (الترك) - من باب الاستعارة-[1] والمعنى: (وما تركْنا إرسال الآيات إلا بسبب تكذيب الأولين) وجيء بكلمة: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ لأن المنع أقوى -معنىً- من الترك، وكأنه تعالى شأنه جعل ذلك ممنوعاً عن نفسه.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ هي التي اقترحها كفار قريش -مثل قلبِ الصفا ذهباً- لأنهم إذا طلبوا آية من النبي صلى الله عليه وسلم وحصلت ثم لم يؤمنوا واستمروا على كفرهم عندئذٍ سيُأْخَذون بالعذاب..

ولكن لمَ هذا ؟

الجواب: لأن ذلك صار من باب المعاهدة والالتزام بها يقولون: (أرنا آية فإن لم نؤمن عَذِّبنا) فعند نقضهم المعاهدة والالتزام وإعراضهم يحقُّ عليهم العذاب، لذلك ترك سبحانه ما اقترحوه من الآيات وأراهم غيرها لأنهم لو أعرضوا بعدما أراهم الآيات التي اقترحوها فسينزل عليهم العذاب، ولا ينزل العذاب وفيهم رسول الله ﷺ.. قال جل جلاله لرسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ فترك سبحانه إجابة الآيات التي طلبوها رحمة بهم من أجله ﷺ.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى واحدة من تلك الآيات فقال عز من قائل: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾

[1] الاستعارة شرعية وعقلية ولغوية؛ واللغوية: استعمال الكلمة فيما غير وُضعت له -لعلاقة- مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

الآيات المذكورة في القرآن الكريم هي على نوعين:

- آيات تكوينية مرئية.. قال جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾

- وآيات مَتْلُوّة قرآنية

والسياق يدل على أن المراد هنا: الآيات التكوينية.

﴿إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ لأنها تنذرهم بالعذاب إن هم أعرضوا.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ﴾: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم

﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾: أحاط بكفار قريش قدرةً، وليس المراد إحاطة العلم لأنه سبحانه يحيط علماً بكل شيء، والمعنى هنا: أنه سبحانه أحاط بكفار قريش بقدرته وهم في قبضته جل وعلا، وهذا فيه انتصار للنبي صلى الله عليه وسلم وتطمين له، وفيه تهديد للكفار إذا استمروا بكفرهم.

وجاءت الجملة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ بصيغة الماضي فمتى قال جل جلاله ذلك؟

الجواب: في سورة القمر التي نزلت قبل سورة الإسراء وفيها قوله تعالى:

﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾

وقد جاء الفعل بصيغة الماضي بالماضي لتحقق وقوعه، وكأن الأمر لشدة تحققه وقع والله تعالى يخبر عنه بعد ما وقع.

وقد بشَّر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في آية: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ بَشَّره بأن أراه – مناماً ويقظةً –مَصارع القوم[1]–لأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى الأشياء قبل وقوعها كما جاء في الصحيحين أنه ﷺ قال: [إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ][2] مخبراً عن الفتن التي ستحصل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم–.

وقد جرت عادة الله جل وعلا أن يخبر عن الأمور بصيغة الماضي –وذلك لتحققها لا محالة– مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: سيأتي أمر الله.

---

[1] انظر سنن أبي داود كتاب الجهاد وفيه قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا] وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ [وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا] وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ [وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا] وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ.

قَالَ أنس رضي الله عنه: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا جَاوَزَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الحج وصحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة

فائدة:

الفعل الماضي: ما دَلَّ على حدثٍ وقع في زمن مضى.

الفعل المضارع: يدل على حدث حاليّ ومستقبليّ.

وأفعالنا تدخل تحت الزمن، أما الله تعالى فلا يحيط به زمان ولا يَحُدُّهُ مكان فكيف نفهم ما جاء في الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ وآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ وغيرهما من الآيات؟

نعم: ﴿كَانَ﴾ وغيرها من الأفعال إذا دخلت على أفعال الحق جل وعلا تُسْلَب معنى الزمن وتدل على الفعل فقط -ولا نقول: تدل على الحَدَث-

فمعنى قوله جل جلاله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ أي: كان سبحانه عليماً ولا يزال عليماً، وهكذا....

والله جل جلاله يخبر عن أمور ستأتي يخبر عنها بصيغة الماضي لأنه لا زمان يقيِّد كلامه وأفعاله عزّ شأنه وتقدست أسماؤه.

فالماضي والمضارع والأمر بالنسبة لنا أفعال مرتبطة بالزمن، أما أفعاله سبحانه فلا تدخل تحت الزمن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾

﴿ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾: أي رأى ﷺ مصارع القوم يقظةً ما رآه ليلة المعراج

وكلمة (الرؤية): مصدر للرؤية البصرية

﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ أي: الرؤيا المنامية، وتطلق على الرؤية البصرية أيضاً

فإن كان المقصود بالرؤيا: المنامية فالمراد مصارع القوم، وإن كان المقصود: الرؤية البصرية : فالمراد ما رآه ﷺ في الإسراء، أما ما ذكره النسفي من أن الله تعالى خاطب الكفار على زعمهم أن رؤية الإسراء منامية فهذا قول بعيد .

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِى ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ : أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة لكفار قريش وهي شجرة الزقوم التي أخبر الله تعالى عنها أنها تنْبُتُ في جهنم فازدادوا بهذا ضلالاً وزعموا أنه لا ينبت شجر في جهنم .

والحق: أن شجرَ جهنم له صفة جهنمية لذلك فهو لا يحترق ومثال ذلك: زبانية جهنم وهم مِن خلق الله ملائكة كرام يعذِّبون أهل النار داخل النار ولكنهم -أي: الزبانية- لا يحترقون بها، ومثال ذلك أيضاً المؤمن يمر على الصراط وهو داخل الصراط ولا يحترق لأنه ليس عنده استعداد أو قابلية للاحتراق .

﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾ فكانت شجرة الزقوم فتنة لهم ليضلوا بها -بكفرهم وعِنادهم-.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾

﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾: وأحياناً تحذف كاف الخطاب مثل: (أرأيتم)

وقد ورد قوله صلى الله عليه وسلم لقريش: [أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟][1].. الحديث

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

فأصل كلمة: (أرأيتَ): (رأيت) أي: علمتَ أو أبصرتَ والهمزة تدخل للاستفهام فيقال: (هل رأيت؟) أو (أرأيت؟) أي: أعلمتَ؟ .

واستعملت العرب: (أرأيتَ) بمعنى: (أخبِرني) لأنه يستلزم ممن يَعْلَمُ الأمر أن يُعْلِمَ غيره به، والكاف للخطاب لا محل لها من الإعراب.

وكلمة: (أرأيتَ) نفس معنى كلمة: (أرأيتَك) .

هل النار أفضل من التراب؟

النار: لطيفة علوية نارية، والتربة: كثيفة سفلية طينية.

النار محرقة مُدَمِّرة، والترابُ مُنَمٍّ.

النار يبتعد الناس عنها، والتراب يطؤون عليه وهم ملاصقون له.

وإن أول من قاس بعقله -مستكبراً- هو إبليس، وراح يجادل في الباطل -وهو يعلم الحق- لكن جداله نوع من المشاغبة في الحجة؛ إذ لا حجة عنده، وجداله كزخرفة القول وتزيينه.

والذي ضلَّلَ إبليس وزين له عمله: هو نفسه، لأن المضلِّلات أربع:

النفس والهوى والدنيا وإبليس، قال السامري كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ فهو في هذا من جند إبليس المقربين إذ إن نفسه سولت له ذلك دونما وسوسة من إبليس.

ما هي حقيقة إبليس: ملَك أم جني ؟

ذهب بعض المتقدمين من السلف إلى أن إبليس مَلَكٌ بدليل أن الأمر بالسجود كان للملائكة فلما تخلف عن السجود طُرِد فَدَلَّ ذلك على أنه منهم.

وقالوا في آية: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ : إن المراد من الجن: الوصف -وهو الخفاء- لا العلمية -التي يكون المراد منها عالم الجن-.

لكن الحق أنه: جِنِّيٌّ؛ وذلك من الوجوه التالية:

أولاً: إن إبليس قال كما أخبر سبحانه عنه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ﴾ والملائكة مخلوقون من نور.

ثانياً: إبليس له ذرية يتوالدون، قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ أما الملائكة عليهم السلام فلا يتصفون بذكورة ولا بأنوثة، ولا يتوالدون.

ثالثاً: إبليس عصى ربه جل جلاله وامتنع عن السجود ، أما الملائكة فقد قال الله تبارك وتعالى في صفتهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ .

إذاً كيف كان الخطاب له والأمر له بالسجود مع الملائكة؟

نعم لقد كان إبليس يعبد الله بين صفوف الملائكة في السماء الأولى، ولما أمرهم[1] تعالى بالسجود لآدم –وكان إبليس بينهم– أمر الله إبليس بذلك فامتنع فقال جل وعلا له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ فدَلَّ هذا على أن إبليس أُمِر بالسجود مع الملائكة لآدم عليه السلام.

وإن إبليس أول شيطان جِنِّيّ –أي أول من (شَطَنَ) أي: كفر وجاوز حد الشريعة من الجن– كما أن قابيل أول من كفر من الإنس، فإبليس هو أبو الشياطين من الجن، وليس هو أول مخلوق من الجن.

كيف عَلِم إبليس بأنه يستطيع إغواء الإنس؟

عَلِمَ ذلك عندما قالت الملائكة كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، أو أنه علم أن آدم عليه السلام مخلوق مركب من الأخلاط وفيه القوى الشهوانية والحيوانية ......

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾: طردٌ له عن الرحمة باللعن، ثم أوعده سبحانه بالعقاب مع أتباعه فقال جل وعلا: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ وكلمة: ﴿رَجِلِكَ﴾ مِن: (رَجِلَ) فهو (راجل) والجمع (رَجِل)

ويقال: (رجل فز) أي: رجل خفيف في الأمور سريع.

---

[1] كان الأمر لجميع الملائكة بمن فيهم جبريل عليه وعليهم السلام.

﴿بِصَوۡتِكَ﴾: صوت إبليس هو الوسوسة من طريق خفي؛ إذ يحوم أولاً في ساحة الصدر، كما قال تعالى: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ ثم يحاول إبليس أن يجمع تلك الأقذار والأوخام ويدخلها في القلب، أعاذنا الله من شره. آمين

والوسوسة تكون خفية، وهي من قضايا الروح، ولا علاقة لها بالقرب المكاني فهي كالإشعاعات، فقد يوسوس إبليس للمصلي في المسجد ويكون إبليس خارج المسجد.

وإبليس اللعين لا يدخل المساجد لأن فيها الملائكة تصلي، والنور والظلمة لا يجتمعان.

أما إذا كان المصلون في المسجد كلهم قلوبهم مغلفة بحب الدنيا والشهوات ولا يوجد بينهم مخلص في عبادته لله فإن إبليس يدخل معهم المسجد .

كما أن الغناء المحرم من جملة أصوات إبليس، ومفعول الغناء: أن يهيّج ويحرّك ما تغني إليه، فإن كان الذي تغني إليه محرماً فالغناء حرام، وإذا كان شيئاً يرضاه الله ورسوله -مِن تَغَنٍّ بالقرآن الكريم والمدائح النبوية- فهو مباح .

وإن آلات الطرب والعزف محرمة، إنما يباح الطبل والدف في الأفراح والأذكار، ولو أصاب الإنسانَ خشوع وحالٌ مِن غناء محرّم فهو حال شيطاني لا رحماني، لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمل آلات الطرب المحرَّمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

روى الإمام مسلم عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: "فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا" فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: "مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ". قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: "نِعْمَ أَنْتَ"][1].

فإبليس له خيّالة ورجالة من الشياطين، ينصب عرشه على البحر ويبعث سراياه على الأرض ليفسدوا بين الناس، وأقربهم عنده منزلة من يأتيه وقد فرّق بين المرء وزوجه.

قوله تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾: مشاركة لهم في الإثم.

﴿وَعِدۡهُمۡ﴾: من مواعيد كاذبة كنفع أنسابهم[2].

---

[1] صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

[2] هذا قول النسفي رحمه الله تعالى

ملاحظة:

اعلم أن النسب لا ينفع صاحبه إذا كفر؛ فكما أن الكفر يحرِمُه الميراث كذلك يحرمه نفع طيب وشرف نسبه، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ هو في الكفار .

أما النسب الصالح فينفع مع الإيمان وخاصةً النسب الشريف إلى السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم القائل: [إِنَّ كُلَّ سَبَبٍ ونَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا سَبَبِي ونَسَبِي][1] والسبب هو التمسك بالدين، فالنسب الصالح ينفع الأصول والفروع .

أما حديث: [مَن بطَّأ به عمله لم يُسْرِع به نسبه][2] فالمقصود به: مَن لم يؤمن وهم الكفار.

---

[1] انظر الحديث الشريف في (مصنف عبد الرزاق) و(الأحاديث المختارة) للضياء المقدسي و(المعجم الكبير) للطبراني و(السنن الكبرى) للبيهقي و(مستدرك الحاكم).

[2] طرف حديث قال عنه في (التيسير): أخرجه مسلم واللفظ له، وأبو داود والترمذي.

***الأوامر الموجهة لإبليس: ﴿ٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ ﴿أَجۡلِبۡ﴾ ﴿شَارِكۡهُمۡ﴾ ﴿عِدۡهُمۡ﴾ ما حقيقتها؟**

إن أوامر الله تعالى إما: تكوينية، كقوله سبحانه: ﴿كُن﴾ فلا تتخلف هذه الأوامر، أو: هي تشريعية تتبع لاختيار المكلف، كقوله جل وعلا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.. وغير ذلك من الأوامر الإلهية.

وإن الأوامر التي وُجِّهَت إلى إبليس ليست تكوينية وليست تشريعية إنما هي من باب: التهديد والعقاب، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ فالأمر في هذه الآية: للتهديد، أي: افعلوا ما شئتم ثم مردكم إلى الله تعالى وحسابكم عليه جل جلاله.

أو إن الأوامر هذه: للإهانة والخذلان؛ أي: لو أنك يا إبليس كفرّتَهم كلهم ما نقص ذلك من ملكي، فافعل ما شئت .

والقول الأول أولى.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾.

كثيراً ما يقيم الله الحجة على الكفار ويلزمهم أموراً يعرفونها ويقرّون بها ، فكفار قريش كانوا يركبون البحر الأحمر في تجاراتهم، فذكر لهم تبارك وتعالى تسخيره للفلك وتسييره لها في البحر ليعرفوا قدرته جل جلاله ويعترفوا بها، ثم ذكر جل وعلا لهم كيف أنهم إذا شارفوا على الهلاك وسط البحر لجؤوا إلى الله وحده ودعوه -دون آلهتهم-، ففي وقت الشدة يلجؤون إليه سبحانه فإذا زالت عنهم أعرضوا عنه تبارك وتعالى.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾:

(الإزجاء): السَّوق والتيسير، ومن ذلك قوله تعالى مخبراً عن إخوة سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزۡجَىٰةٍ﴾ أي: معروضة بكثرة في السُّوق، وغير كاسدة.

وكلمة: ﴿ٱلۡفُلۡك﴾: قد تطلق على الجمع والواحد؛ قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جَرَت الفلك -وأراد بها الجمع، وقد تطلق على الواحد-.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ۝٦٦﴾: سَيَّر لكم السفن في البحر رحمةً بكم.

واعلم أن أول سفينة صُنعت على وجه الأرض هي التي صنعها نوح عليه السلام بتعليم من الله، بدليل قوله جل وعلا: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: عنايتنا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ تعليماً لك.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي: ضل عنكم مَن تدْعون وتتخذون مِن الآلهة، ولا علم لها بحالكم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿حَاصِبًا﴾ : ما فيه الحصباء وهو البَرَدُ الكبير وسمي بذلك لأنه يَبْرُدُ الزرع -أي: يقطعه-، ويحصب كل ما يصيب -أي: يدمِّر-.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

(القصف): الكسر

﴿تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: مُطالباً بشيء يتعلق بكم ومدافعاً عنكم، فلا أحد يطالب الله ويسأله:(لمَ فعلت بهم كذلك وأهلكتهم؟) وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ أي أن الله تعالى لا يخاف عاقبة فعله وهذه صفة لله وحده، أما غيره من المخلوقات فإنه إذا دَمّر أو فتك يخشى ويخاف عاقبة ذلك -كأخذ الثأر منه وهكذا- .

ويذْكر العلماء أن موحِّداً وملحداً ركبا في السفينة وماجت الرياح والأمواج فأشرفا على الغرق فقال الموحد للملحد: (هل يئست من الحياة ومِن كل مَن ينجينا)؟

فقال له: يئست ممن ينجينا؛ لكن لي أمل في قلبي يبعثني على الطمأنينة، فقال له الموحِّد: (هذا هو الله تعالى).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ : اللذيذة حساً، أو المال الحلال.

ذكر الإمام النسفي رحمه الله تعالى وجوهاً من تكريم الله لبني آدم، وأنه سبحانه خلق الأشياء كلها مسخرة لبني آدم، وخلق بني آدم لعبادته جل جلاله، وهذه الوجوه من التكريم عامةٌ تشمل البر والفاجر، وأول تكريم ذكره الله تعالى هو: خلقُ آدم بيديه، كما جاء في قوله تعالى مخاطباً إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

والتفضيل المذكور في الآية: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ هل المراد به تفضيل النوع على النوع؟ أم المراد به علو المنزلة التي تقتضي كثرة الثواب؟

الجمهور على أن المراد بالتفضيل هنا علو المنزلة وكثرة الثواب؛ فالتفضيل على هذا الأساس هو للمؤمنين فقط لأنه لا ثواب إلا لهم وهم أهل الفضل، أما الكفار فلا إيمان ولا فضل لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾: هل المؤمنون أفضل من الخلائق كلها حتى الملائكة؟

المعتزلة قالوا: (الملَك أفضل من البشر) ـ المؤمن طبعاً ـ بدليل الآية : ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وليس: وفضلناهم على كل من خلقنا.

وقال قسم من أهل السنة بقول المعتزلة، ولكنهم استثنوا من هذا التفضيل سيدَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إنه ﷺ أفضل الخَلْق.

والحقّ: أن البشر أفضل من الملَك -على التفصيل الآتي-:

خواص البشر مِن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من خواص الملائكة كجبريل وإسرافيل عليهما السلام...

وأوساط البشر من الأولياء أفضل من أوساط الملائكة

وعَوامُّ البشر من الصالحين -غير الفسقة- أفضل من عوام الملائكة

أما الآية: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ فالمراد: (على كل من خلقنا).

وكثيراً ما تأتي في القرآن الكريم هذه الكلمة ويراد بها: الكل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾، كما تطلق (القلة) على (العدم) كما جاء في قوله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ولا أحد منهم يفقه أو يتعظ.

أما الخيرية المذكورة في الحديث القدسي: [.. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ][1] فالخيرية هنا خيرية كثرة؛ أي: (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ أكثر عدداً من الملأ الذي ذكرني فيه) كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وبيّن هذه الخيرية في آية ثانية فقال جل وعلا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فقد تطلق الخيرية على الكثرة.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار واللفظ له

ولما كان الصحابة يذْكرون الله بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم يُذَكِّرهم بالله وآياته، والحديث يقول: [.. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ] وأي ملأ خير من ملأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يذكرهم الله فيه؟!

فالخيرية هنا خيرية كثرة عدد وليس خيرية فضل ومزية.

وإذا كانت الخيرية هنا خيرية فضل ومزية فإن الله تعالى يذكرهم عند الحقيقة المحمدية [1] الجامعة للكل، والتي خُلقت منها سائر الأشياء، وهي النور الأول الذي أعظم مظاهره: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

---

[1] هناك عالم الأجساد، وقبْله عالم الأرواح، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام ـ والله أعلم بهذه الأعوام ـ وقبل عالم الأرواح هناك عالم الحقائق النورانية –وهي أول مظهر لعالم الهباء– فكل شيء له حقيقة في عالم الحقائق، وأول الحقائق الإيمانية النورانية: الحقيقة المحمدية ﷺ، وقد تسمى بـ (الحقيقة الكلية) أو (الحقيقة الجامعة)، ثم تفصلت هذه الحقائق وظهرت بمظاهر الأرواح، ثم ألبس الله هذه الأرواح أجساماً.

النفخ: (إيصال شيء موجود إلى شيء موجود آخر)، فالملك ينفخ الروح الإنسانية في جسم الجنين.

والروح مخلوقة قبل الأجسام، والأرواح التي هي موجودة على يمين آدم عليه السلام هي أرواح السعداء[1]، والتي على يساره هي أرواح الأشقياء، والحقائق مخلوقة قبل الأرواح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾.

---

[1] قال الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (الإيمان بعوالم الآخرة): ذهب جمهور العلماء إلى أن الأرواح الإنسانية مخلوقة قبل الأجساد، واستدلوا على ذلك بما جاء في حديث المعراج المروي في: (الصحيحين) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديثه عن المعراج: [فلما فتح] - أي: فتح خازن السماء الدنيا الباب لنا – [علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى.

فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح].

قال صلى الله عليه وآله وسلم: [قلت لجبريل: من هذا؟

قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه] - أي: أرواح بنيه – [فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى] ...الحديث. اهـ

﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ : الباء للتعدية وليست للحال ، وتفيد معنى (المصاحبة) أي: (ندعوهم مصطحَبين بإمامهم) والمراد بالإمام هنا: مَن اقتدوا به في الدنيا –سواء في الخير أو الشر–.

وليس المراد بالأئمة هنا: (الأنبياء) لأن الأنبياء ورد فيهم آية غير هذه الآية، أما هنا فقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ﴾ أي: بمن فيهم الكفار، والكفار لا يمشون خلف أنبيائهم.

ثم ذكر تبارك وتعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾ أي: وهناك من أوتي كتابه بشماله، فدل ذلك على أن المراد بالإمام هو الذي اقتدوا به في الدنيا مِن أئمة الهدى أو الضلال،

أما القول بأن المراد به: (كتاب أعمالهم) فبعيد.

﴿فَمَنۡ﴾ : (مَنْ) تطلق على المفرد والجمع، فإن أطلقتها على الجمع قد تراعي لفظها فتفرد، وقد تراعي معناها فتجمع .

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ مفرد

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ جمعٌ؛ راعى معنى (من).

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾ الفتيل هو الثقب الصغير الموجود في بطن النواة، وقد يطلق على الخيط الناعم.

و(الظلم) عند علماء الكلام هو: (التصرف في ملك الغير بغير إذنه)، وعلى هذا فلا يُتصور الظلم في جانب الله تعالى لأن الكل ملكه فيتصرف كما يشاء جل وعلا، ولكن هذا التعريف مخدوش لأنه إذا كان الظلم لا يُتصور في حقه تعالى فكيف يمدح تعالى نفسه بأنه لا يَظلم ،لأن التمدح يكون في أوصاف الكمال بمعنى أن يتنزه عن أمر قد يفعله لكنه لا يفعله جل وعلا.

لذلك فتعريف الظلم عند أهل الحق هو : (أن لا يُنقِص المحسن من ثوابه ولا مقدار فتيلة، ولا يزيد في عقاب المسيء ولا مقدار فتيلة) وهذا تمدح في صفة كمال، ولو أنه سبحانه أراد غير ذلك لفعل لكنه لا يفعل جل وعز.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾: أشار إلى الدنيا إشارة بـ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾

﴿أَعۡمَىٰ﴾: العمى الحقيقي هو: عمى القلب، والعمى المجازي هو: عمى البصر؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ أي: هم صمُّ القلوب وعميُ القلوب وبُكْمٌ في الدِّين؛ لأنهم تعاموا فعموا وصموا آذانهم عند سماع الحق، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، وقال تعالى في وصف الكفار: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ فيحشرهم الله تعالى عميان البصر والبصيرة، فالكافر البصير في الدنيا يحشر في الآخرة أعمى البصر والبصيرة.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم! وهذا لا يتنافى مع الآية السابقة، فهم يحشرون في بعض المواقف عمياناً، لكن عند دخولهم جهنم يعطيهم الله تعالى قوة في السمع والبصر ليعاينوا الأهوال والعذاب.

﴿أَعۡمَىٰ﴾: أي بمعنى (أفعل التفضيل) لكن العمى لا يقبل التفاضل أما عمى القلب فيجري فيه التفاضل، فهم في الآخرة أشد عمىً في قلوبهم من عمى قلوبهم في الدنيا.

قوله عز من قائل: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ طلبَ كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم تبديل آية رحمة بآية عذاب، وآية عذاب بآية رحمة فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ وإثبات المقاربة -كاد: فعل مقاربة- يفيد النفي، وذكر الله تعالى في الآية فضله على نبيه ﷺ وعنايته به وتثبيته له فقال جل وعلا: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ﴾ للتقليل

﴿تَرۡكَنُ﴾: أدنى الميل

﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾: تنكير للتقليل، إذاً: لا شيء من الميل موجود.

ثم بيّن سبحانه كيف أخرجه ﷺ قومه من مكة ثم أهلك الله صناديدهم يوم بدر وقد قال صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة: [عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ][1]

---

[1] انظر مسند الإمام أحمد 17968

﴿خَلِيلٗا ٧٣﴾ مِن (الخُلَّة) وهي زيادة المحبة، أما قول من قال بأنها من (الخَلَّة) بمعنى الحاجة فهو قول بعيد.

قال الشاعر:

وإن أتاه خليل يوم مسغبةٍ يقول: لا غائب مالي ولا حَرَمُ

(خليل) أي: محتاج؛ مِن الخَلَّة.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مِن (إقامة الصلاة) بمعنى: تعديلها، والإقامة جعل الشيء مستقيماً.

﴿لِدُلُوكِ﴾: اللام للتوقيت، أي: لوقت دلوك الشمس أي: زوالها و(الدلوك) و(الدلك)[1]: مصدر بمعنى (الانتقال) و(دلوك الشمس): انتقالها من النصف الأول ودخولها في النصف الثاني مائلة إلى الزوال، ومنهم من فسر (الدلوك) بمعنى (غروب الشمس)، لكن الجمهور أنه بمعنى (زوالها) فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ دخل فيه وقت الظهر.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ دخل فيه وقت العصر والمغرب والعشاء.

وقوله جل وعلا: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ دخل فيه وقت الفجر.

وعلى هذا المعنى تكون الآية جامعة لأوقات الصلوات الخمس.

---

[1] دلك يده: نقلها من وضع إلى آخر

أما تعييناتها وتفصيلاتها فقد بيَّنها جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم بعدما فُرضت الصلاة ليلة المعراج وأول ما بدأ بالظهر [1]

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: معطوف على قوله جل جلاله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أقم قرآن الفجر وهي صلاة الفجر ،لأن الصلاة قد يطلق عليها (الصلاة) أو يطلق عليها أحد أركانها كالركوع والسجود، قال سبحانه للسيدة مريم عليها السلام: ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

والقرآن لفظ يطلق على المقروء وهو كلام الله تعالى، أو يطلق على القراءة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ المراد بـ (القرآن) هنا: القرآن المقروء كلام الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ أي قراءتك للقرآن وقت الفجر كانت مشهودة -وهي صلاة الفجر لأن فيها قراءة للقرآن الكريم- يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار الموكلون بالإنسان، وملائكة الليل يستلمونك بعد صلاة العصر ويسلّمونك لملائكة النهار بعد صلاة الفجر، وأنت غافل عن هذا الاستلام والتسليم!

[1] وسمي بـ (الظُّهر) لأنه أول ما ظهر مِن بيان فرض الله تعالى

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

الهجود هو: النوم، يقال: (هَجَدَ) أي: نام، و(تهَجَّد) أي: ترك النوم، ويقال: (أَثِمَ) أي: وقع في الإثم، و(تأَثَّمَ): أي: تباعد عن الإثم، و(حَرِجَ) أي: وقع في الحرج، و(تحرَّج) أي: تباعد عن الحرج، و(حَنِثَ) أي: وقع في الحِنث، و(تَحَنَّث) أي: تباعدَ عن الحنث، وتسمى هذه التاء: (تاء السلب).

فالصلاة في الليل قبل النوم تسمى: (قيام الليل) أما إذا نام المرء ثم قام للصلاة فتسمى: (تهجداً)، وهذا أشقُّ على المرء وأفضل له عند الله تعالى.

ومِن علماء اللغة مَن قال: إن (هجد) و(تهجَّد) [1] مِن أفعال الأضداد فتأتي بمعنى (نام) وبمعنى (ترك النوم).

قوله تعالى: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾: أي: بالصلاة

﴿نَافِلَةٗ﴾: النافلة لغةً: الزيادة، ومنه: التنفيل في الحرب بأن يعطي قائد السرية بعض الشجعان نفلاً أي زيادة على غيرهم في الغنيمة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ هنا النافلة بالمعنى اللغوي أي: وهب الله لإبراهيم يعقوب زيادة على البشارة بإسحاق على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

ونوافل الصلوات والعبادات هي الزيادات على الفرائض والواجبات والسنن.

ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ هل هذه الزيادة هي زيادة نفل تعبدي أي زائد على الفرض، أم المراد زيادة فرض على الفرائض عليك؟

---

[1] أي أن (هجد) و(تهجد) لهما نفس المعنى؛ وهو: إما (نام) أو (ترك النوم)

اختلف العلماء؛ فمنهم من قال: هي سنة زيادة على الفرائض الخمسة لك ولأمتك من بعدك.

ومنهم من قال: هي زيادة فرض عليك خصوصاً لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أمتك، فعليهم زيادة سنّة وتطوع أما عليك ففريضة -وهذا عليه الأكثرون- لذلك لم يترك صلى الله عليه وسلم التهجد.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

﴿عَسَىٰٓ﴾ مِن الله تعالى: واجبة إذا دخلت على فعله تعالى، أي: لا بد أن يبعثك ربك مقاماً محموداً.

و(المقام المحمود) هو: مقام الشفاعة العظمى، وسمي بذلك لأن جميع الخلائق يحمدون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الموقف -حتى الملائكة عليهم السلام- لأنه ﷺ خَلَّص العالم كله من أهوال الموقف.

﴿أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا﴾: مصدر ميمي مِن (قام) على وزن (نَصَرَ- ينصُر- نصراً ومَنْصراً).

فالمصدر الميمي قد يراد منه:

-(النصر) تقول: (نصرتَه منْصَري لفلان) أي: نصري لفلان، والمراد منه: المصدر.

-وقد يطلق على (موضع النصر) تقول: (هذا مَنْصَري لفلان) أي: موضع نصري له

-وقد يطلق على (الوقت والزمن) تقول: (هذا مَنْصري لفلان) أي: وقت نصري له.

فهنا قوله تعالى: ﴿مَقَامًا﴾ يحتمل:

-(قياماً) أو (مكان القيام) يقال: (قام مقام فلان) أي: مكان قيام فلان .

-أو (الزمن) يقال: (قام مقام فلان في شهر كذا) أي: وقت قيام فلان في شهر كذا.

فالآية ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾ أي: يقيمك مكاناً محموداً وهو على يمين العرش للشفاعة .

قوله جل جلاله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ التحقيق على أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي: أدخلني المدينة المنورة ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي وذلك بالهجرة من مكة المكرمة، وما ذكر غير هذا فغير صحيح؛ إذ إنه صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة بالهجرة في شهر محرم حتى جاءه الأمر بالهجرة في الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾.

وسياق الآية يدل على أن المراد منها الهجرة؛ فقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ أي يجعل الله له ﷺ سلطاناً ينصره على أعدائه ليتمكن من الخروج من مكة آمناً مطمئناً، والآية تعم في المعنى أي: كل أمر أدخل فيه أدعو أن يكون دخولي بصدق وكل أمر أخرج منه أدعو أن يكون خروجي بصدق -من الأمور الدنيوية والمعاملات والمعاشرات والصلاة وهكذا- ..لكن أول ما يدخل تحتها: سبب النزول وهو الهجرة .

وكذلك الآية التي بعدها: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾أي الإسلام، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الكفر والشرك؛ وهذا لأن راية الدين ارتفعت بعد الهجرة. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ : ﴿مِنَ﴾ للتبيين وليست للتبعيض أي: القرآن الكريم كله شفاء، وليس بعضه شفاء وبعضه الآخر ليس بشفاء.

﴿شِفَآءٌ﴾: من أمراض القلوب والقوالب ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ : الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ لكفرهم وضلالهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

يقال: (أعرض عن الشيء) أي: ولّاه عرض وجهه

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: توكيد للإعراض، أي أعرض كل الإعراض

ومنهم من قال: إن المراد : (استكبر) من باب المجاز، وعبَّر عن الاستكبار والعناد بإعراض الجانب –ولم يُعْرض الإنسان فعلاً– لكن حاله حال المستكبرين فكان كالمعرض .

لكن الحق أن المراد هو الإعراض الفعلي لأنه ما دام يمكن تطبيق الحقيقة فهي مقدَّمة على المجاز، وحمْل الكلام على الحقيقة أولى مِن حمله على المجاز، والكفار كانوا يعرضون إعراضاً حقيقياً عندما يسمعون القرآن الكريم.

ملاحظة : المرجع في القراءات هو كتب القراءات، وليس كتب التفسير؛ إذ إن كتب التفسير قد تخطئ.

قوله تعالى: ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾: الشاكلة: المماثلة، يقال: (على شكل كذا) أي: على مثل كذا، فكل واحد يعمل على شاكلته التي تشاكل حاله أي تشابه حاله، فإن كان حاله الضلال يعمل على حال الضلال، وكذلك الهدى.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾

الذي نقله النسفي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى ولم يعلم الروح: غير ثابت.

تعريف الشيء:

-إما تعريف بالحد أي: تعريف الحقيقة والماهية.

- أو تعريف بالرسم أي: تعريف الخصوصية.

فقولك: (الإنسان حيوان ناطق): تعريف بالحد أي حقيقة الإنسان

وقولك: (الإنسان ضاحك): تعريف بالرسم لأن من خصوصيات الإنسان أن يضحك، أما الحيوان فلا يضحك.

ليس كل ما يذكره المفسرون من أقوال هو تحقيق؛ فهناك علم جمع أقوال، وعلم تحقيق -أي معرفة أي الأقوال أحق- .

وقد كثرت الأقوال في معرفة الروح التي سئل عنها النبي صلى الله عليه وسلم لأن الروح في القرآن تطلق على عدة معان:

فقد تطلق على جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.

وقد تطلق على القرآن الكريم، قال جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

وقد تطلق على الأرواح المجردة -غير الملائكة-، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾[1].

فما المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾؟

الحق أن المراد به الروح الإنساني.

فما حقيقة الروح الإنساني، ومن السائل عن ذلك؟

أورد النسفي رواية: (أن النبي ﷺ لما كان في مكة سأله المشركون -بإيعاز من اليهود حيث قالوا لهم: "سلوه عن ثلاثة أشياء؛ فإن أجابكم عن الكل فهو نبي، وإلا فلا"- فسأل المشركون رسولَ الله ﷺ عن أهل الكهف وذي القرنين والروح)

[1] منهم من قال: إن الروح هنا خَلْق عظيم كبير

وهذه الرواية فيها خلاف في نصها، وأوردها النسفي من روايات أصحاب السير، وهم إذا ذكروا شيئاً لم يذكره علماء الحديث فيحتاج إلى نظر وتدقيق.

أما الرواية الواردة في كتب الحديث -كصحيح البخاري وغيره- فهي: أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم -عندما كان ﷺ في المدينة المنورة-عن الروح - وهم يعلمون أن حقيقة الروح لا يعلمها إلا نبي- وقالوا: "إن أجاب ﷺ فهو صادق"فجاء الجواب: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾.

فهل هذا جواب تجهيل أم جواب تفصيل وتحقيق؟

الأكثرون على أنه جواب تجهيل، وعلى أن الروح أمر استأثر الله تعالى بعلمه فلا يُعْرَف.

أما الحق: فالجواب جواب تفصيل وتحقيق ؛ لأنه إذا كان الجواب للتجهيل -وهم أرادوا امتحان النبي صلى الله عليه وسلم، ويعرفون أن حقيقة الروح لا يعلمها إلا نبي- يكون تجهيله لهم حجة لهم، لذلك جاء الجواب من الله تعالى جواب تفصيل وتحقيق أي: إن الروح من عالم الأمر اللطيف الرباني، فهناك عالَمُ خَلْقٍ وعالَمُ أمْرٍ، قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾.

فعالم الخلق: خلقه الله تعالى من مادة، ويحتاج إلى مدة في خلقه -وإن كان مخلوقاً بقول الله له: ﴿كُن﴾ لكن الله تعالى خلقه خلقاً بعد خلق، وعالم الخلق عالم كثيف -كالجسم الإنساني مخلوق من نطفة والأصل من تراب-.

أما عالم الأمر: فهو عالم لطيف رباني، لا يتقيد بالمدة، وغير مخلوق من مادة، بل بأمر الله ﴿كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ فوراً، فالروح من هذا العالم، وكذلك أرواح الملائكة والأرواح المجردة، وعالم الأمر عالم كبير، فأنت مجمع العالَمين: الخلق والأمر ، وإن قيام الأشياء كلها هو من عالم الأمر، لذلك كان جوابه صلى الله عليه وسلم جواباً ألقم به الحجر لأعدائه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾.

المراد: ما أوتي جميع الخلائق بالنسبة لعلم الله إلا القليل، ونسبة هذه القلة كنسبة نقرة العصفور من البحر إلى البحر ـ كما جاء في حديث موسى والخضر عليهما السلام[1] ـ وهي في الحقيقة نسبة مُتَناهٍ إلى ما لا يتناهى.

وقيل: المراد بالخطاب اليهود فقط عندما زعموا أنهم أوتوا التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾.

﴿وَلَئِن﴾: اللام موطّئة للقسم أي: قامت مقام القسم كأنه قال: (وبالله إن شئنا لنذهبنَّ).

﴿لَنَذۡهَبَنَّ﴾: اللام واقعة في جواب القسم

﴿شِئۡنَا﴾: فعل الشرط.

والقسم يحتاج إلى جواب، و(إنْ) تحتاج إلى جواب، وقوله تعالى: ﴿لَنَذۡهَبَنَّ﴾ جواب القسم، لكن سدَّ مسد جواب الشرط.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وفي الآيات امتنان الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه، وجمعه له في صدره الشريف صلى الله عليه وسلم، وحفظه له وتكفله سبحانه بأن يحفظه له ولأمته -رحمةً منه تعالى ولو شاء لمحاه من الصدور والسطور-

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿لَا يَأْتُونَ﴾: جواب قسم محذوف ودلت عليه اللام الموطئة في قوله تعالى: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾ وهذا الجواب سد مسدَّ جواب الشرط ﴿لَّئِنِ﴾

ففي الآية يعلن سبحانه وتعالى عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل القرآن ولو اجتمعوا كلهم، فمن باب أولى إذا اجتمع بعضهم وهذا تعجيز وإعجاز إلى يوم الدين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

(المثَل): قد يطلق على التشبيه والتمثيل، وقد يطلق على ما هو ظاهر في حسنه فتقول: (هذا مَثَلَ الكمال) أي: مثال الكمال .

فمعنى الآية: (ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن الأمور بياناً كالمثل الظاهر ومع هذا جحدوا وكفروا).

و(الجحود): إنكار الحق بعد معرفته، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ فعرفوا ولم يعترفوا ، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

و(الكفر): الستر، و(الكافر) -لغة-: الساتر، وسمي بذلك لأنه ستر الحق بعد ظهوره له .

فالليل كافر أي ساتر، وكفارة الذنب: ستّارة الذنب، والفلاح كافر -لغة- لأنه يستر البذور تحت الأرض لزراعتها، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ فالمراد من ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ في هذه الآية: الزُّرَّاع.

الكَفْرة : مجموعة أشجار ملتفة حول بعضها، تستر ما تحتها، ومنها المنطقة المسماة : (كفر حمرة) وغيرها ...

قوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾: ﴿إِلَّا﴾ تدل على سابقية النفي، فتقول: (ليس في البيت إلا فلان)، (ما قام إلا زيد).

ولا يصح قولك: (ضربتُ إلا زيداً)، إنما الصحيح: (لم أضرب إلا زيداً)

فالآية متأَوّلة ومتضمنة معنى النفي؛ أي: (لم يرض أكثر الناس إلا كفوراً).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

(كِسْفَة) : (قِطْعَة) -وزناً ومعنىً-.

﴿كِسَفًا﴾: قِطَعاً، وفي قراءة: ﴿كِسْفًا﴾ كـ (سِدْراً).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

هذه شبهة بعض الكفار أنهم حين تأتيهم الرسل ينكرون عليهم رسالتهم بحجة أنهم بشر مثلهم ، ويزعمون أنه لو كان الله مرسِلاً رسلاً لأرسلهم من الملائكة كما أخبر الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

ورد الله تعالى عليهم هذه الشبهة فقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: لو جعل الله تعالى الرسول ملكاً وجاء إلى البشر بالحقيقة الملكية فإنهم لا يرونه ولا يسمعون منه ولا يستفيدون، وعندئذ فلا بد أن يتمثل هذا الملك بصورة رجل ليأخذوا عنه ويقتدوا به ، ولو رأوا رجلاً لعادوا إلى إنكارهم وادعائهم أنه مثلهم!

ولذلك أبطل الله تعالى حجتهم وبيَّن أنه لا بد أن يرسل إلى البشر مَن هو مِن جنسهم ليعلّمهم وليستفيدوا منه ، ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لأرسل عليهم رسلاً وملائكة .

فالرسل بشر لكن فوق مستوى البشر خصّهم الله بخصائص فوق مستوى البشرية لذلك قال جل جلاله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فباعتبار أنه ﷺ يوحَى إليه ففي هذا رفع لمستواه ﷺ فوق مستوى البشر لأن الوحي لا يمكن لكل أحد أن يتلقاه، ولا بد له من أهلية لأن اتصال الملَك مع البشر والبشر مع الملك –والملك يتلقى عن الله تعالى– هذا الأمر يحتاج إلى قوة خاصة.

لذلك كان صلى الله عليه وسلم تعتريه شدة عند نزول الوحي ويتعرق لكن قلبه صلى الله عليه وسلم في غاية الانشراح، كما ترى –من باب المثال– مَن يذكر الله تعالى بقوة قد يتعرق لكنه في سرور وانبساط.

فالانتقال من الطور البشري إلى الطور الملكي والأخذ عن جبريل –وجبريل عليه السلام على ما هو عليه يتلقى عن الله– هذا الأمر يحتاج إلى قوة وتثبيت خاص من الله تعالى.

ومن هنا تفهم معنى الآية: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فثبت ولم يتصدع وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي وهو على الناقة بركت الناقة.

فالرسل صلوات الله عليهم جمعوا صفتَي:

كمال البشرية –دون البهيمية– وكمال الملكوتية العالية.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأنهم وإن عاندوك يا رسول الله فإن الله يراهم ويطلع عليهم .

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾.

﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾: هو الذي قبِل الهدى وعمل به فاهتدى مثل قولك: (جمعتهم فاجتمعوا) من باب الافتعال والمطاوعة أي: (دلَلْته وبيّنت له فقبل الهدى وعمل به.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾: هذه الآية قد يُشْكل فهمها على البعض ويظن أنه لا حجة على العبد -لأن الهدى والضلال بيد الله تعالى- .

وهُنا: الأمر الذي يجب تفهّمه: أن القرآن الكريم وصفه الله تبارك وتعالى تارة بأنه كتاب متشابه فقال تعالى: ﴿كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا﴾، وتارة وصفه سبحانه بالمحكم فقال جل وعلا: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ ، وتارة أخرى وصفه سبحانه بالمحكم والمتشابه فقال عز من قائل: ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾.

فقوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾: أي أن كل آياته مرتبطة ببعضها البعض، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ومنسوجة كالثوب الواحد، فإذا أردت أن تفهم معنى آياته فعليك أن تفهم كل الآيات؛ بعضها مع بعض كما أنك -ولله المثل الأعلى-لو وصلتك رسالة من شخص فإنك لا تدري ما مراده منها حتى تقرأها كلها.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: يشْبه بعضه بعضاً، ويفسّر بعضه بعضاً .

وقوله جل وعلا: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾: فالمتشابهات كالبنات والمحكمات أُمّ، فلفهم الآيات المتشابهات يجب ردها إلى الأم -الأصل- أي: الآيات المحكمات فهي المرجع، فإذا رددت المتشابهات إلى المحكمات صارت كلها مُحْكمة، وإذا فصلت المحكمات عن المتشابهات وقعت في الضلالات.

فالآية السابقة من المتشابهات لذلك يجب ردها إلى المحكمات ليُصار إلى بيانها وفهمها:

قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾

وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾

وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[1]

وقال جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾

فكثير من الآيات يعلِّق الله تعالى فيها إضلاله لهم على اختيارهم وإعراضهم وإنكارهم، قال عز من قائل: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾.

[1] أي: لأجل أنهم لم يؤمنوا به أول مرة

لذلك يجب عليك رد المتشابهات إلى المحكمات لئلا تقع في الزيغ والضلالات، قال سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي الكل – محكمه ومتشابهه- هو من عند الله تعالى، فيجب ربط الآيات ببعضها لفهمها، فإذا قرنت الآيات ببعضها فالقرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وإن فصَلت بعضها عن بعض فهو (متشابه) لأن بعضه يفسّر بعضه الآخر، وإذا وقفت عند بعضه دون بعض فقد فصَلت المتشابه عن المحكم ووقعتَ في الضلال .

فالله تعالى يحشر الكفار يوم القيامة على وجوههم لأن القادر على أن يمشيهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، وهم عندما عاشوا في الدنيا كانوا يصمون آذانهم ويعرضون عن رؤية الحق ، تعاموا فأعماهم، وتصامّوا فأصمّهم سبحانه؛ فالجزاء من جنس العمل .

﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ كلمة ﴿جَهَنَّمُ﴾: تدل على العمق، يقال: (بئر جهنّام) أي: بئر عميقة سحيقة.

قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨﴾

(الكفر) هو: (الستر)، ولا يكون الستر إلا لشيء ظاهر، فالكفار ستروا الحق بعدما بان لهم نور الإيمان واتضح لهم بالمعجزات على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلا يقال عن إنسان: (إنه كافر) إلا لمن بلغه الحق ثم ستره وجحده [1].

---

[1] ولذلك لا يقال عن أهل الفترة وأهل الشواهق لا يقال عنهم: (إنهم كفار)

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ فهم لا يؤمنون سواء أنذرهم ﷺ أو لم ينذرهم، لأنهم كفار ستروا الحق وجحدوا به –وقد ظهر لهم– فكان جزاء إعراضهم وكفرهم أن ختم الله على قلوبهم، قال جل جلاله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ فالختم من الله جاء بعد كفرهم، لذلك يجب أن تفهم القرآن الكريم على أساس قواعد ومعاني اللغة العربية.. قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ أي: لعلكم تعقلون معانيه على منهج اللغة العربية.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾

﴿يَرَوۡاْ﴾أي: (يعلموا)، وكثيراً ما تطلق (الرؤية) في القرآن الكريم على (العلم)

كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥﴾

ولا أحد يرى ببصره سبع سماوات طباقاً.

وقوله سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾[1]

ولكن ما سبب التعبير عن (العلم) بـ (الرؤيا)؟

---

[1] أي: (ألم تعلم علماً قاطعاً كأنك رأيت عِياناً)

إن قوله تعالى:﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ أي: (ألم تعلموا علماً جازماً بالأدلة القاطعة)، والعلم الجازم كالرؤيا القاطعة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾

في علم الإعراب -وهو علم النحو-: أدوات الشرط مثل: (لو ، إن ، إذا....) لا تدخل إلا على الفعل، فإذا دخلت على الاسم فيجب تقدير الفعل قبل الاسم، والفعل المذكور يُفَسّر الفعل المحذوف، فالتقدير: (قل لو تملكون أنتم خزائن رحمة ربي تملكون إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) وذلك كآية: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ فتقديرها: (وإن استجارك أحد من المشركين استجارك) .

وقد يقال : (لِمَ لم تأت الآية هكذا: قل لو تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ....) فلمَ أتى بالاسم ولم يأت بالفعل؟

والجواب: لو قيل : (لو تملكون خزائن رحمة ربي ...) لما كان فيه تكرار للفعل (تملكون) بل يذكر عندها مرة واحدة إذ لا حاجة لتقدير الكلام، ولكن أريد من ذلك التكرير: التأكيد، والتكرير باللفظ في القرآن الكريم غير وارد فجيء بـ ﴿أَنتُمۡ﴾ فكأنه سبحانه أعاد الفعل -تأكيداً، وإن لم يذكر الفعل- لأن التقدير: (قل لو تملكون أنتم خزائن رحمة ربي تملكون إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) فذكر الفعل مرتين للتأكيد لما أخبر عنه وهو قوله تعالى: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾.

أما من ناحية علم البلاغة [1] فأدوات الاختصاص: (ما – إلا – إنما)

كقولنا: (ما قام إلا زيد) (ما العالِمِ إلا فلان) (إنما زيد القائم)

ومن جملة الاختصاص: (تقديم العامل) أو (تقديم المعمول)، ففي قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ قدَّم سبحانه ﴿أَنتُمۡ﴾ على ﴿تَمۡلِكُونَ﴾ أي: أنتم لا غيركم – تخصيصاً لهم– أي: لو أن غيركم –يا معشر الكفار– لو أن غيركم تولّاها كأكرم خلق الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لَمَاَ أمسك، أما أنتم فلا خير منكم، –وهذا زيادة في تقبيحهم وذمّهم– فوصفَهم سبحانه بالشح مُكَرَّراً ومختصين به .

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾: المراد: الإنسان الكافر؛ لأن البخل ليس من صفة المؤمن، قال صلى الله عليه وسلم: [وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ] [2] والبخل من الكبائر، ويُبعِد العبدَ عن الله تعالى.

---

[1] علم البلاغة ينقسم إلى: (علم المعاني) و(علم البيان) و(علم البديع)، وقد يراد من (علم المعاني): (علم البلاغة).

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب البر والصِّلة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾:

أي: الآيات التكوينية والمعجزات وهي الدلائل الدالة على قدرة الله تعالى كالعصا واليد [1] والجراد والقمل والضفادع والدم، وانفجار الماء من الحجر، وانفلاق البحر، والطور الذي نتقه فوقهم جبريل عليه السلام ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾: أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ويستأصلهم منها فهجَّره الله وجماعته – الأقباط– وأغرقهم – رغم أن فرعون لم يكن يباشر القتال أو الحرب بنفسه بل كان يرسل الجنود ويأمرهم لكن عندما أراد أن يقتل موسى وقومه استفزه الله تعالى فخرج في جنوده ليلحق بموسى وقومه فأغرقهم الله تعالى.

[1] كان موسى عليه السلام يُدخل يده في جيبه ـ أعلى صدره مروراً على قلبه ـ فتخرج يده بيضاء نيّرة لماعة، وهي إشارة إلى نور شريعته إذ كان بنو إسرائيل لا يصدّقون حتى يرون عِياناً، أما الأمة المحمدية فاكتفت بمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم وكلامه الشريف، وإلا لو أدخل صلى الله عليه وسلم يده الشريفة في جيبه الشريف لخرجت بيضاء ولأضاءت لها وبها السماوات والأرض.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ المراد بالأرض هنا: أرض مصر التي أُخرجوا منها؛ إذ لما تبعهم فرعون خرجوا متوجهين إلى بيت المقدس ولما أغرق الله فرعون وجنوده عادوا إلى مصر وأقاموا فيها إلى أن أمر الله تعالى موسى عليه السلام بالتوجه إلى بيت المقدس.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾:

عاد بالبحث إلى القرآن الكريم ومعجزته ثم استطرد بالمناسبات إلى كفار قريش ومعاندتهم ومعارضتهم وكيف راحوا يتطلبون أموراً للمعاندة والمعاجزة إذ إنه صلى الله عليه وسلم أراهم ما هو أكبر مما طلبوا، ولم يكونوا -أي: كفار قريش- لم يكونوا أول من عاند وعارض رسولهم عليه الصلاة والسلام بل كان قبلهم قوم موسى عليه السلام -وهم الأقباط- إذ أراهم ما أراهم من المعجزات لكنهم أعرضوا وعاندوا -وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتم بأمر قريش ومعاندتهم فقوم موسى كانوا كذلك-.

وكذلك لما أخرجه قومه صلى الله عليه وسلم من مكة وهاجر إلى المدينة ثم عاد إلى مكة المكرمة فاتحاً لها مُذِلاً لمن كان فيها من الكفار إذ إن الله تعالى أنزل إليه لما خرج من مكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾: فما نزل القرآن الكريم إلا بالحكمة وأنواعها من التشريع والتوحيد ..

﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾: نزل بالهدى إلى كل خير، فنزل بالحق محفوظاً من الشياطين، وبالحق تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا تلاعب ولا تداخل شيطانياً

والباء في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ هي للملابسة، تقول: (دخلت على فلان بالثوب الفُلاني) و(دخلت على فلان بالأمر الفُلاني) أي: متلبِّساً ذلك الأمر.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾: منصوب على الاشتغال

﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾: فصلنا فيه الحق من الباطل

﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ وتؤدة

﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ ؟

إن قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: جملة، أما قوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ أي: تدريجاً، وهاتان الكلمتان الكريمتان إذا اجتمعا لفظاً تفرقا معنى، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ وقد يطلق أحدهما على الآخر عند الإفراد.

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ أي: أنزلناه جملةً من السماء الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ أي: نزلناه عليك تدريجاً في مدة ثلاث وعشرين سنة على حسب الأسباب التي تستدعي النزول كسؤال أو أمر شرعي أو وقائع.

وهناك فرق بين تنزل القرآن الكتابي والتِّلاوي:

1ـ فالتنزيل إلى اللوح المحفوظ تنزيل كتابي -أي: كُتب في اللوح-

2ـ ثم التنزيل من اللوح إلى بيت العِزَّة في السماء الدنيا، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ وهو تنزيل كتابي أي: كُتِبَ في صحف الملائكة

3ـ ثم التنزيل من جبريل عليه السلام إلى قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تنزيل تلاوي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

والبحث في هذه التنزلات يحتاج إلى بحث خاص .

قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝١٠٨﴾ أي: قل يا محمد يا رسول الله قل لكفار قريش وجميع الكفار: (آمنوا بما جئتُ به أو لا تؤمنوا فإيمانكم وعدمه لا يضر الله شيئاً، وعدم إيمانكم دليل جهلكم لأن هذا القرآن قد آمن به مَن هو أعلم منكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ : أي أوتوا العِلم بالكتب السابقة لنزول القرآن -وهم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى- ومن جملة العلم الذي قرؤوه في كتبهم: أن الله سيبعث في آخر الزمن نبياً اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ويُنزل عليه القرآن الكريم.

﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۝١٠٧﴾: أي يؤمنون به ويسجدون لله تعالى؛ مثل : عبد الله بن سلام وزيد بن ثعلبة وكعب الأحبار وغيرهم رضي الله عنهم.

والخرور هنا: خرور سجود ، والأذقان هنا جمع (ذقن) والذقن قد يطلق إما على مجمع اللِحيين أو (اللَحيين) أو على ما نبت على هذا من شعر .

وقد يطلق مجازاً على الوجه كله ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ أي الوجوه ـ وقيل : ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ أي يتمكنون من سجودهم بحيث يلتصق شعر ذَقنهم بالأرض.

وقيل: يَخِرُّون أولاً على الأذقان ثم يتمكنون من السجود

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾ أي: إنه كان وعد ربنا – الذي وعدنا إياه في التوراة والإنجيل من إرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه – كان وعده سبحانه محققاً .

فكونكم يا كفار قريش لم تؤمنوا به -لكبريائكم- هو أمر لا يهمُّ محمداً صلى الله عليه وسلم ولا يمنعه عن التبليغ .

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾: (إنْ) في النحو قد تأتي شرطية، وقد تأتي مخففة من الثقيلة – كما في الآية هنا – والمعنى: (إنه كان وعد ربنا لمفعولاً).

و(إن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن (إنه) أي: الشأن .

لكن للتفرقة بين إنْ المخففة من الثقيلة وإن النافية في لغة العرب لزمت المخففة اللام وهي لام الفارقة أو المزحلقة وتفيد التقوية والتوكيد وتَفْرق بين إن النافية وإن المخففة من الثقيلة فلو قيل في غير القرآن مثلاً: (إن كان وعد ربنا مفعولاً) أي: (ما كان وعد ربنا مفعولاً) نعوذ بالله.

لذلك اللام واجبة في لغة العرب لتدل على أنّ (إنْ) هي المخففة من الثقيلة وليست النافية ولذلك قال سبحانه: ﴿لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾

و(إنَّ) تؤكد الأسماء، كقولك: (إنَّ زيداً لقائم) فاللام في كلمة (لقائم): للتوكيد والتقوية، وهي اللام المزحلقة إذ إنها لما دخلت (إنَّ) زحلقت اللام من المبتدأ إلى الخبر لقوة (إنَّ) وصدارتها.

أما في الأفعال فتسمى اللام: (اللام الفارقة) وتدل أيضاً على التوكيد والتقوية كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾:

الخرور هنا سببه الخوف والخشية من الله تعالى ، وذلك أنهم عندما يتلون القرآن وتعتريهم الخشية من الله يسجدون لله تعالى سجود شكر أن وفقهم وآمنوا، وسجود خوف وخشية من الله تعالى، وفي هذه الآية تنبيه:

أنه إذا كان علماء أهل الكتاب السابقين حالهم هذا فعلماء أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أولى بذلك .

فشأن العالم أن يكون شديد الخشية من الله تعالى وكثير البكاء -ولو كان بين قومه خلاف ما يدعيه الجهّال أن البكاء للعوام دون العلماء- فقد ذكر تعالى ووصف أهل العلم بالبكاء من خشية الله تعالى .

وإن أعبد العابدين وسيد العِباد والعُبَّاد لما قرأ عبد الله بن مسعود القرآن بحضرته ووصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قال صلى الله عليه وسلم : [حسبك يا ابن مسعود، حسبك] فالتفت ابن مسعود فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم عيناه تذرفان[1] بالدموع – وهو السيد الأعظم– .

إذاً البكاء هو شأن الأنبياء والصديقين والعلماء لذلك جاء في الحديث الشريف: [عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله][2]

وإن دمعة من خشية الله تغسل من ذنوب مَنْ بكى مِن خشية الله ما لا تغسله البحار، وشرط البكاء: أن يكون مِن خشية الله تعالى وبصدق مع الله تعالى لأن الصدق مع الله تعالى أساس كل عبادة .

ولو ملأ العبد السماوات والأرض سجدات ولم يصْدق مع الله فيها لما أفادته شيئاً، وقد وقع هذا لإبليس إذ إنه ما ترك بقعة في الأرض إلا وسجد فيها، وما ترك بقعة في السماء الدنيا [3] إلا وسجد فيها لكن لا إخلاص فيها بل كان واقفاً مع نفسه بالكبر والدعوى، وعند الامتحان ظهرت حقيقته، وفي هذا عبرة للعابدين قبل غيرهم أن يحذروا الرياء والكبر في عباداتهم، وأن يتحلَّوا بالصدق مع الله وإلا فلا بد أن يكشف الله المدَّعي كما كشف إبليس، نسأل الله العافية. آمين

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

[2] سنن الترمذي كتاب فضائل الجهاد

[3] أُذِن له بالسجود في السماء الأولى فقط

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إن أسباب النزول تشرح المراد.

قيل: سبب النزول: أن أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول مرة : [يا الله يا رحمن] وبسبب جهله ظن أن سيدنا محمداً ﷺ يدعو إلهَين وظن أن الله تعالى غيْرُ الرحمن، والرحمنُ غيرُ الله فنزلت الآية تبيِّن أن الكل أسماء لله تعالى، فالمسمّى واحد والأسماء متعددة.

وعندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة انتقده كذلك أهل الكتاب بأنه صلى الله عليه وسلم يقلّل مِن ذِكر الرحمن باعتبار أن ذِكر اسم الرحمن في كتبهم كثير وأرادوا بذلك الطعن في القرآن الكريم فنزلت الآية جواباً لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾: أي قل لكفار قريش وأهل الكتاب

لذلك يقال: (نزلت هذه الآية مرتين) وذلك بسبب تعدد السؤال من المشركين في مكة المكرمة ومِن أهل الكتاب في المدينة المنورة.

وفي هذا بيان للحكمة من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لأنها جواب سؤال واعتراض ، فما كل آية يُصدِّرها الله تعالى بـ ﴿قُلْ﴾.

فهو صلى الله عليه وسلم مأمور من جانب الحق أن يقول ما أُوحيَ إليه فمرةً جاءت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، ومرة جاءت الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فعندما تَرِدُ ﴿قُلْ﴾ يعني أن هناك سؤالاً جرى أو اعتراضاً أو مناظرة فجاء الجواب مُصَدَّراً بـ ﴿قُلْ﴾ أي: الله تعالى يوحي إليه : قل يا محمد قل لهم، فمن جملة مقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ﴾

لذلك لما نزلت ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾.... ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم لأن ظاهر الآية أن يقول: (هو الله أحد) ، (أعوذ برب الفلق)..

فلمَ أتى بـ ﴿قُلۡ﴾ ؟

روى البخاري عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ رحمه الله قَالَ: (سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه عَنْ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: [قِيلَ لِي فَقُلْتُ]، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[1]

فمن جملة المقولات التي قيلت له ﷺ أن يقول: ﴿قُلۡ﴾ .

أما الحكمة في أن بعض الآيات صُدِّرت بـ ﴿قُلۡ﴾ وبعضها لم يصدر بها فكما ذكرنا إذا كان هناك سؤال أو اعتراض ترِد ﴿قُلۡ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ وهكذا .

وإذا وردت ﴿قُلۡ﴾ دون ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ دَلَّ ذلك على أن هناك سؤالاً أو اعتراضاً فأتى بـ ﴿قُلۡ﴾.

ففي الآية هنا اعترض مشركو مكة على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يدعو باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ واسم ﴿ٱللَّهَ﴾ ، وكذلك اعترض أهل الكتاب في المدينة على أنه صلى الله عليه وسلم يكثر ذِكر اسم ﴿ٱللَّهَ﴾ ويُقِلّ من ذِكر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾.. فنزل الرد عليهم .

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

﴿أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ﴾: المراد بالدعاء هنا دعاء التسمية وليس دعاء النداء، أي المراد: تسمية الحق، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أي: سمّوه بأسماء كما علّمكم ، ولا مانع من أن يراد من الدعاء معنى السؤال أي التسمية مع السؤال والطلب.

﴿أَيًّا﴾ : (أيّ) من أدوات الشرط الجازمة تجزم فعلين: فعل شرط وجواب شرط، والتنوين عوض عن الاسمين أي: (أيَّ الاسمين تدعوا فله الأسماء الحسنى)، ويدخل هذا التنوين على كلمة (يوم) فيقال: (يومئذٍ) و (عندئذٍ).

قوله تعالى: ﴿مَّا﴾ هي في اصطلاح النحاة مَزِيدة، وهي في البلاغة للتقوية والتأكيد مثل قوله تعالى: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ﴾ فـ ﴿مِنۢ﴾ هنا مزيدة لكنها للتأكيد، فهُم ينكرون كأنهم يقولون: (ما جاءنا ولا بعض بشير).

والحاصل: إن كان قبلها نفي فهي لتأكيد النفي وإن كان قبلها إثبات فهي لتأكيد الإثبات

﴿تَدۡعُواْ﴾ : مجزوم لأنه فعل الشرط

﴿فَلَهُ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط لأن جواب الشرط هنا جملة اسمية.

وتلزم الفاء جواب الشرط في الحالات التالية:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتسويف

كما في الأمثلة التالية:

-(إن جاء زيد فأكرمه) طلب وأمر

-(إن جاء زيد فليس له حظ) فعل جامد

-﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ لاقتران الجواب بـ (ما)

-﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ لاقترانه بـ (قد)

-﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ لاقترانه بـ (لن)

ولاقترانه بـ السين وسوف.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ﴾ : الضمير عائد لله تعالى .

وظاهر الآية : (أي الاسمين تدعوا فهو حسن) فلماذا أتى الجواب ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ رغم اعتراضهم على الاسمين فقط؟

لقد جاء الجواب أعمّ؛ أي هذان الاسمان وغيرهما كلها حسنى، ففيه أولاً تنبيه إلى كثرة أسمائه سبحانه وتعالى، وإلى أنها كلها حسنى .

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ : صيغة تفضيل للمؤنث (أحسن) : تقول: (حسن ، أحسن ، حسنى).

﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي أنها أسماء لا يُتصوَّر لها نظير في الحسن، ومهما تصورت في حسنها فهي أحسن وأحسن ...

وتقول عن صفات المخلوقات: (فلان أحسن من فلان) أما ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالنسبة لله تعالى فمعناها: (لها في الحسن الدرجة التي لا نهاية لها) فهو تفضيل مطلق عن القيد، وليس المراد تفضيل على صفات المخلوقات فهذا أمر لا وجه للنسبة فيه كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فهذا ذم للسيف لمقارنته بالعصا.

لذلك فإن كمالات الحق مطلقة عن القيد كما قال جل وعلا: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾
فله سبحانه التكبير المطلق والحسن المطلق والكمال المطلق .

والأسماء الإلهية تابعة للكمالات الإلهية، والكمالات الإلهية لا نهاية لها فالأسماء الإلهية لا نهاية لها .

وإن من جملة كمالاته وصفاته سبحانه: (العلم) فتقول :(هو تبارك وتعالى عليم)
ومن جملة كمالاته وصفاته جل جلاله: (القدرة) فتقول: (هو جل وعلا قدير)
وهكذا ...وكلٌّ من: (عليم) و(قدير): اسم.

وإن صفات الكمال لا نهاية لها لأن هناك صفات كمال باطنة لم تظهر وستظهر في عوالم مقبلة، وهناك صفات وكمالات استأثر الله بعلمها وحده، فكل كمال صفة من صفاته، وكل صفة لها اسم تدل عليه كما قال صلى الله عليه وسلم : [أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم ..][1] وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: [فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يلهمنيه الله][2] .

ومن جملة هذه الأسماء الإلهية القدسية التي لا نهاية لها: تسعة وتسعون اسماً خصها الله بخصوصية: أن [مَنْ أحصاها دخل الجنة[3]] أي: مَنْ حفظها وآمن بها .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾
﴿بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك في الصلاة، لأنه قد تطلق الصلاة على بعض أركانها من باب إطلاق الجزء على الكل -كالركوع أو السجود أو القراءة- ...

---

[1] طرف حديث عزاه الحافظ السيوطي في الجامع الكبير إلى الديلمي والطبراني

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

[3] صحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار

فكان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة لما يصلي في الحرم ويقتدي به بعض الصحابة ويسمع المشركون منه ذلك فمنهم مَن يشوش عليه ويلغو ويسب ، فقيل له: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ حتى تُسمع المشركين ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[1] بحيث لا يسمعك من خلفك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾.

وهناك من قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ كلها ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كلها ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾ أي الصلاة الجهرية والصلاة السرية .

أو المراد بالصلاة: المعنى اللغوي لها -وهو الدعاء- كما قال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع الله لهم، وكصلاة الجنازة معناها الدعاء للميت، فالمراد: لا ترفع صوتك بالدعاء بل حسب الحاجة.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ١١١﴾

بنو مليح : طائفة من النصارى قالوا:" عزير ابن الله" فنزلت الآية رداً على من زعم أن الله تعالى وَلَدَ عيسى، ومنهم من قال: "إن الله تعالى تبنّى عيسى" فنزلت الآية رداً عليهم، فالله تعالى لم يلد ولم يتخذ ولداً أي لم ينفصل منه ولد ولم يتبنَّ ولداً .

و(المُلك) هو: التصرف والتدبير، ومنه: (مَلِك) أما (المِلك) فهو المملوك ومنه (مالك) فقد يكون الإنسان ذا مِلكٍ ولا مُلكَ له، وقد يكون ذا مُلكٍ ولا مِلكَ له، فالملك على البلاد هو المتصرف في شؤونها وهي ليست مِلكاً له قال تعالى مخبراً عن فرعون قوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي التصرف فيها.

---

[1] المخافتة هي غاية الإسرار

وقد يكون الإنسان ذا مِلك ولا يستطيع أن يتصرف بمملوكاته كما يريد لكن ضمن الحدود الشرعية ....

فالله تعالى هو المالك، والمخلوقات هي مِلك له، وهو المِلك عليها المتصرف فيها، ولا شريك له في المُلك ولا في المِلك .

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

﴿وَلِيٌّ﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول

وكلمة (الولي) مشتقة مِن الولاء وهو النُّصرة ، وكلمة (أولياء) أي: أنصار، وكذلك مشتقة من المحبة.. قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي أحباباً ، فقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ولم يكن له ناصر ينصره من الذل أو ولي يعتز به، أما هو سبحانه فله أولياء بالعز يعزهم ويعتزون به وله أنصار ينصرهم وينصرون دينه، قال عز من قائل: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ وقال جل وعلا: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

فالولي اجتمع فيه (الفاعل والمفعول) فهو ينصر دين الله وينصره الله فهو ناصر ومنصور، يحب الله تعالى ويحبه الله فهو محب ومحبوب، قال سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾أي: عَظِّمْهُ، وكبِّره تكبيراً مطلقاً دون قيد .

وهذه الآية سمّاها النبي صلى الله عليه وسلم: (آية العز)[1] وكان يعلّمها للغلام من بني عبد المطلب إذا أفصح[2]، وفيها القوة والنصر .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[ما كَرَبَني أمر إلا تمثّل لي جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، قل : (توكلت على الحي الذي لا يموت ، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾][3].

والآية التي قبل هذه الآية: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ لها خصوصيةُ: أنّ مَن تلاها وكتبها في داره حُفظ من السرقة مِن الإنس والجن.

نعم هذا لأن الكون كله مرتَّب على الأسماء الإلهية، وهي التي تحرِّك الكون.

---

[1] انظر مسند الإمام أحمد 15081

[2] انظر (مصنف عبد الرزاق) و(مصنف ابن أبي شيبة)

[3] انظر (مستدرك الحاكم) و(الفرَج بعد الشدة) للحافظ ابن أبي الدنيا و(الدعوات الكبير) للحافظ البيهقي

والكلمات الإلهية لها تأثيرها كما جاء في دعاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامَّات، التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر...] الحديث[1]

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] قال الإمام الشيخ رضي الله عنه في كتابه: (الإيمان بالملائكة):

ومِن أجمع التعاويذ وأقواها تأثيراً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : [رأيت ليلة أُسريَ بي عِفريتاً من الجن يطلبني بشعلةٍ من نارٍ ، كلَّما التفتُّ رأيتُه ، فقال لي جبريل عليه السلام : ألا أعلِّمك كلماتٍ تقولها فتطفىء شعلته ويَخرَّ لِفيه] – أي يقع على وجهه – [فقال رسول الله ﷺ : بلى ، فقال جبريل : قل: أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامَّات ، التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر ، من شرِّ ما ينزل من السماء ، ومن شرّ ما يعرُج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار ، إِلا طارقاً يطرقُ بخيرٍ يا رحمن].

ثم قال رضي الله عنه: رواه مالك عن يحيى بن سعيد مرسلاً، ورواه النسائي من حديث ابن مسعود بنحوه ، ورواه أحمد وأبو يعلى، ولكل منهما إسناد جيد محتج به عن عبد الرحمن بن خنبش التميمي رضي الله عنه وقد سئل: كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الجن؟ فذكر الحديث وقال في آخره: فطفئت نارهم، وهزمهم الله تبارك وتعالى. اهـ كما في ترغيب المنذري.

كُتُب للمؤلِّف

* حول تفسير سورة الفاتحة -أمّ القرآن الكريم.

* حول تفسير سورة الحجرات.

* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾.

* حول تفسير سورة المُلْك.

* حول تفسير سورة الإنسان.

* حول تفسير سورة العلق.

* حول تفسير سورة الكوثر.

* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوِّذتين بعدها.

* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.

* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.

* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها -آدابها -خصائصها.

* شهادة (لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ﷺ):

فضائلها -معانيها -شواهدها ومشاهدها -مطالبها.

* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة -شمائله المجيدة.

* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.

* التقرب إلى الله تعالى: فضله -طريقه -مراتبه.

* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين -فضائلها -آثارها -آدابها.

* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها -فضائلها -فوائدها.

* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.

* الدعاء: فضائله -آدابه -ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث حول عالم الجن.

* حول ترجمة المرحوم الإمام العلّامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه.

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.

* أدعية الصباح والمساء، ومعها استغاثات.

* مناسك الحج، ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها.

* الصيام: آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة

مِن آثار الشيخ الإمام

* محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره -فضائله -أسراره.

*محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

* محاضرات حول عالم الجنة: مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -الجزء الأول.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالَم في الوعظ والتذكير -الجزء الثاني.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -موقف تعليم الكتاب -الجزء الثالث.

* محاضرات حول مقامات أهل الإيمان -الجزء الرابع.

* محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

* محاضرات حول تفسير خواتيم سورتَي البقرة وآل عمران والمعوِّذات وأذكار بعد الصلوات.

* محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

* مجالس الحديث النبوي الشريف: الأجزاء الخمسة.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة

قَبَسات من المؤلفات

* الكلام حول الأدلة على أنه (لا إله إلا الله وحده).

* حُكْمُ أَبَوَيْ سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم الشَّرِيفَين.

* أربعون حديثاً من جوامع كَلِم النبي ﷺ.

* شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة.

* التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ.

* رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم.

* عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله.

* حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ.

* سبب وجود بعض الأحاديث -التي فيها ضَعْفٌ- في مؤلَّفات الإمام.

* سبب ذِكر بعض البشائر المنامية في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ).

* البشائر الغُرَر للمكثرين من الصلاة على سيد البَشر ﷺ.

* آثار الزكاة وأنوارها، وعقاب مانع الزكاة.

* صلاة الاستخارة ودعاؤها.

* وصول الثواب إلى الأموات.

* معاني الصلاة الإبراهيمية.

وتجدونها -وغيْرها- متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل أبحاث مختارة من كتب الإمام